سُورَةُ الأَعْرَافِ

مكية وهي مائتان وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[1] وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن المعنى: أنا الله أعلمُ، وأفصِلُ.

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب، والمراد به القرآن العظيم، الحائز للكمالات المختصة به ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من جهته تعالى ربِّ العزة والجلال، وهي صفة مشرِّفة لقدره ﷺ وقدر ما أنزل إليه، بُني الفعلُ للمجهول جرياً على سنن الكبرياء، إيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل، لغاية ظهور تعينه ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي لا يكن فيك ضيق صدر

---

(١) تقدم في أول سورة البقرة، أن الحكمة من ابتداء بعض السور، بالحروف الهجائية المقطَّعة، هو بيان «إعجاز القرآن» وأنه منظوم ومركّب من أمثال هذه الحروف المقطَّعة، ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله، وهو ما اختاره المحققون من المفسرين.

من تبليغه، مخافة أن يكذبوك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ تعليل للإنزال أي لتنذر به جميع الثقلين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكرى اسم بمعنى التذكير، أي ولتذكِّر به المؤمنين تذكيراً، وتخصيص التذكير بالمؤمنين، لأنهم هم المنتفعون به، وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين، أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي أنزله إليكم ربكم، ففيه الهدى والشفاء والبيان، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، مزيدُ لطفٍ بهم، وترغيبٍ لهم في الامتثال بما أُمروا به ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله، كالأوثان والرهبان والكُهَّان، تقبلون منهم ما يلقونه إليكم، ليضلُّوكم عن الحق، ويحملوكم على البدع والأهواء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً حيث لا تتأثرون بذلك فتتركون دين الله، وتتبعون غيره.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ذكَّرهم تعالى بما نزل بمن قبلهم من العذاب، بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى، والمراد بقوله: ﴿أَهلكنَاهَا﴾ إرادة إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي أردتم القيام إلى الصلاة، وهنا يراد أردنا إهلاكها ﴿فَجَآءَهَا﴾ أي فجاء أهلها وقيل: المراد إهلاك نفس القرية مع أهلها، بهدم أو خسف ﴿بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال، أي بائتين، والبياتُ: الإغارة على العدوّ ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار،

وإن لم يكن مع ذلك النوم، قال تعالى: ﴿وأحسن مقيلاً﴾ في حق الجنة، والواقعُ أنه لا نوم فيها، فحاصل المعنى: أتاهم عذابنا تارةً ليلاً، كعذاب قوم لوط، وتارة وقت القيلولة، كعذاب قوم شعيب، وتخصيصُ الحالتين بالعذاب، لما أن نزول المكروه عند الغفلة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع، فلا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي، ولا يَغْتَرَّ بالأيام الخوالي، وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر، لأن القيلولة أظهر في إرادة الدَّعَةِ، وخفض العيش، فإنها من دأب المترفين، دون من اعتاد الكدح والتعب في النهار.

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم كقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ عذابنا وعاينوا أماراته ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم، تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، وهيهات!!.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[1] أي فلنسألنَّ الأمم قاطبة، قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟ فإن قلت: قد أخبر الله عنهم في الآية الأولى، بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم، فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب أن هذا السؤال للتوبيخ والتقريع، والمنفي في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانّ﴾ سؤال الاستعلام، فإن الله عالم بما صنعوا لا يحتاج إلى سؤالهم، ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي نسأل الرسل الكرام ماذا أجيبوا؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[2] لأن الكفار يقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ والمراد من هذا السؤال: توبيخ الكفرة، وتقريعهم أيضاً، والحاصل أن المكلَّفين يسألون عن أمور أُخر،

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

والمواقفُ يوم القيامة شتَّى، ويسأل ربُّ العزة والجلال عباده فيها عن أمور عديدة، فطوبى لمن أخذ بعضده السعد، فأجاب بما ينجيه!!.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي على الرسل حين يقولون: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعاً ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، والمراد الإحاطة بأقوالهم وأفعالهم، لا يشذُّ منها شيء عن علمه سبحانه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي وزن الأعمال، والتمييز بين الراجح منها والخفيف، والجيد والرديء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم السؤال والحساب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الوزن الحقُّ للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل، واختلف في كيفية الوزن، والجمهورُ على أن صحائف الأعمال تُوزَنُ بميزان له لسانٌ وكفتان، ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للعدل، وقطعاً للمعذرة، ويؤيده ما روي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلصُ رجلاً من أمتي، على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سِجِلاً، كلُّ سِجِلّ مثلُ مدّ البصر، فيقول سبحانه: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول سبحانه: أفلك عذرٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا رب، فيقول جلَّ شأنه: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليكَ اليوم، فتخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فيقول: احضُر وزنك!! فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة، مع هذه السِجِلاَّت؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السِجِلاَّتُ في كِفة، والبطاقةُ في كفة، فطاشت السِجلاَّتُ، وثقلت البطاقةُ، ولا يثقل

مع اسم الله تعالى شيء»[1] وشأن الميزان أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، فالنطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة، فتوضع كسائر الحسنات، وأيد ذلك بقوله: «إنَّ لك عندنا حسنة» دون أن يقول إيماناً، وقيل الوزن: عبارة عن القضاء والحكم العادل، وإليه ذهب المعتزلة، قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، والحال أن البشر قد اخترعوا موازين الأعراض، كالحر، والبرد، ونحوهما، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع ميزان للأعمال؟ والأصل فيه أن كل ما ثبت من الأخبار، في الكتاب والسنة، فهو حقٌّ نؤمن به، ولا نحكم في صفاته وكيفياته ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن، والموازين جمعُ موزون، وهو العمل الذي له وزن عند الله سبحانه، والمراد به الحسنات، أي فمن رجحت موازينه التي تُوزن بها حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من العذاب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين أعماله القبيحة السيئة، بسبب الكفر واجتراح المنكرات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي ضيَّعوا الفطرة السليمة، فخسروا سعادتهم وحياتهم بالهلاك والخلود في النار ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي جزاء على ظلمهم وتكذيبهم لآيات الرحمن، واستدل بهذه الآية على أن عذاب الكفار متفاوت، ولا يُعقل أن يكون عذاب أبي جهل، كعذاب أبي طالب، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان رقم ٢٦٤١ ورواه أيضاً ابن ماجه، والحاكم وصحَّحه.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لمَّا أمر الله سبحانه أهل مكة، باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، ذكَّرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر، ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي، فقال: ﴿وَلَقد مَكَّنَّاكُم﴾ أي جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على التصرف فيها، من سكناها وزرعها وغير ذلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون، من المطاعم والمشارب ونحوها ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة الجسيمة، وفيه تحذير لهم من كفران النعمة.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم، سارية إلى ذريته، موجبة لشكرهم كافة ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ أي خلقنا أباكم «آدم» طيناً غير مصوَّر، ثم صوَّرناه، وإنما نُسب الخلقُ والتصويرُ إلى المخاطبين، توفيةً لمقام الامتنان، وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه، ومصنوع على شاكلته ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، تكريماً له ولذريته، فامتثلوا الأمر، وسجدوا إلا إبليس اللعين، فقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وهذا صريح في أن الأمر ورد بعد خلقه عليه السلام وهو المراد بما حُكي في سائر السور، وكلمة «ثُمَّ» تقتضي التراخي عن التصوير، والمعنى: أنَّا ابتدأنا خلق آدم من تراب، ثم صوَّرناه، ثم بعد الفراغ قلنا... الخ.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: أيَّ شيءٍ منعك من السجود، و﴿لا﴾ زائدة، بدليل قوله تعالى: في سورة ص: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ومثلها ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[1] أي ليعلم، وفائدةُ الزيادةِ التأكيد، وأنها منبهة على أن الموبَّخ عليه تركُ السجود، فإن قلت: لم سأله وهو أعلم به؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وحسده لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي حين أمرتك بالسجود له، وفيه دليل على أن هناك أمراً خاصاً لإبليس بالسجود لآدم، وإن لم يكن من الملائكة، وقد جاء في سورة الحِجر: ﴿مَالَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؟ واختلاف العبارات عند الحكاية، يدلُّ على أن اللعين قد أدمج في معصيةٍ واحدة، ثلاثَ معاصٍ: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، و الاستكبار، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحد منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن، على ما ذُكر فيه، اكتفاءً بما ذُكر في موطنٍ آخر ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا في الحقيقة ليس بجواب، بل هو جواب من حيث المعنى[2] استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أنّي خيرٌ منه، ولا يحسُن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سنَّ التكبر، وأخطأ في القياس، حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو تعليل لما ادعاه ـ عليه اللعنة ـ من فضله على آدم، وحاصله إني أشرف منه، لأنك خلقتني من نار، وهي جوهر نوراني، وخلقته من طين، وهو ظلماني، وقد غَلِط في ذلك، بأن رأى الفضل كلّه باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار السرِّ الإلهي المودع فيه، كما نبَّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فيه مِنْ روحِي﴾ وبالعلم الذي وهبه له، ولذلك أمر

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٤٤١: وجواب إبليس اللعين ليس عما سُئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي عليه، إذْ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين!!.

الملائكة بالسجود له، فهو أعلم منهم، وله خواص ليست لغيره، وقد أخطأ إبليس أيضاً في قوله: النار أفضل، بل الطين أفضل، لرزانته ووقاره، ومنه الحلم والحياء والصبر، وفي النار الطَّيْشُ والحدةُ والترفعُ، وذلك الذي دعاه إلى الاستكبار، والترابُ عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والتراب منه الأمانة والإنماء، والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب يطفىء النار، والنار لا تطفئه، وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى نزل بفاسد من المقاييس، قال جعفر الصادق: «أولُ من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه»!!.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ من الجنة التي هي في السماء، التي يسكنها المؤمنون يوم القيامة، وقيل: إنها روضة بعدن، وكانت على نَشز من الأرض[1]، وبعد العصيان حُجب اللعين من السماء، التي هي مقره ومعبده ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ ﴾ أي فما يصح ولا يستقيم لك ﴿ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ تعليل للأمر بالهبوط، وفيه تنبيه على أن التكبر، لا يليق بأهل الجنة، وأنه تعالى طرده لتكبره، لا لمجرد عصيانه، ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج، في مقابلة قوله: ﴿أنا خير منه﴾ والمراد بالتكبر التكبر على الله، وهو أعظم التكبر ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي ممن أهانه الله لِكِبْرِه، والصَّغَارُ بالفتح: الذلُّ أي إنك من الأذلاء، يذمُّك كلُّ إنسان،

(١) القول الأول أنها الجنة التي في السماء هو الصحيح، لأن الله تعالى ذكر في سورة «طه» وصفاً لا ينطبق إلا على جنة الخلد التي في السماء، وهو قوله سبحانه: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وانظر المسألة مفصلة في كتابنا النبوة والأنبياء ص ١٧٠.

ويلعنك كلُّ لسان. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من تواضع لله تعالى رفعه الله، ومن تكبَّر وضَعَه الله»[1].

﴿قَالَ﴾ أي قال اللعين بعدما سمع هذا الطرد ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي آدم وذريته، وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحة من إغوائهم، ويأخذ منهم ثأره لاستحالته بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي إنك من جملة الذين أخرتُ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه الحكمة، وظاهره إلى يوم يبعثون، حيث وقع في مقابلة كلامه، لكن في سورة الحِجر، وصّ التقييدُ بيوم الوقت المعلوم، والمشهور أنه يوم النفخة الأولى[2]، دون يوم البعث، لأنه ليس بيوم موت، وفي إنظاره ابتلاءٌ للعباد، وحكمُه حكم ما خلق الله تعالى في الدنيا، من صنوف الزخارف، وأنواع الملاهي والملاذ، وما رُكِّب في الأنفس من الشهوات، ليمتحن بها عباده.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم كما في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والإغواء خلق الغيِّ، وأصل الغي الفسادُ، وجاء بمعنى الجهل كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وبمعنى الخيبة، ومنه

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٧٥ ﴿قال أنظرني﴾ أي أمهلني وأخرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي إلى يوم البعث، فأراد أن يعبر قنطرة الموت، وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلُّهم، وقد بيَّن إمهاله في سورة الحِجر بقوله سبحانه: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ولا مانع عند أهل السنة، أن يُراد بالإغواء خلق الغيِّ بمعنى الضلال، أي بما أضللتني، وهو المروي عن ابن عباس لعموم قوله سبحانه: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ترصداً بهم، كما يقعد القُطَّاع لقطع الطريق على الناس ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي طريق الإسلام الموصل إلى الجنة، فالقعود مجازٌ عن الإغواء، والآية تدل على أن إبليس كان عالماً بالدين الحق، ولذا قيل: كُفْرُ إبليس كفر عناد، لا كفر جهل، وفي الحديث الشريف إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: «أتَسلمُ وتَذَرُ دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تُقاتِل فَتُقْتَل فتنكح المرأة، ويُقسم المالُ؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة»[1].

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من الجهات الأربع، التي يعتاد هجوم العدوّ منها، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي مطيعين، وإنما قال ذلك ظناً منه، لقوله تعالى: ﴿ولَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ﴾ لمَّا رأى مبدأ الشهوة متعدداً، شهوة النساء، والمال، والجاه، والتسلط كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وأنها تدعو النفس إلى عالم الجسم، وليس هناك ما يدعو إلى عالم الروح إلاَّ قوة واحدة، وهي العقل، وما يصنع واحدٌ مع متعدد؟.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٨٣ من حديث سَبُرة بن فاكه مرفوعاً، وأخرجه النسائي ٦/ ٢٢ في الجهاد، قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن، وصححه ابن حبان.

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة ﴿ مَذْءُومًا ﴾ أي مذموماً كما روي عن ابن زيد، أو مهاناً لعيناً كما روي عن ابن عباس يقال: ذَأمه: إذا عابه وحقَّره فهو مذؤوم[1] ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً، دَحَره طرده وأبعده ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام موطئة للقسم، وجوابُه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ومعنى ﴿مِنكُم﴾ منك ومنهم على تغليب المخاطب، وهذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع، والضلالات، يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس، ثمَّ الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة، كانت منه عز وجل من غير واسطة، وليس المقصود بها الإكرام، بل التعذيب والتعنيف.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة، وكلا من ثمارها وخيراتها من أي مكان شئتما، ولا تقربا شجرة معينة، فتصبحا خاسرَيْن، نادمينْ بظلمكما لأنفسكما.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات، التي يقبح كشفها، وأراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتهما، ولذلك عبَّر عنها بالسوأة، وفيه دليل على أن كشف العورة من غير حاجة، قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع ﴿ مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن

---

(١) قال ابن قتيبة: المذؤوم: المذموم بأبلغ الذم، والمدحورُ: المقصيُّ المبعد من رحمة الله، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١٧٨.

﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما غُطّي وستر عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر ﴿وَقَالَ﴾ إبليس لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي إلاّ كراهة أن تكون ملكَيْن ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون ويخلدون في الجنة.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما، وصيغةُ المفاعلة للمبالغة، لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه، وقيل: المفاعلةُ على بابها والقسَمُ وقع من الجانبين، قالا له: أتقسم بالله تعالى لنا أنك لمن الناصحين؟ فأقسم لهما، فجعل ذلك مقاسمة.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي فخدعهما وأطمعهما ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرَّهما به من القَسَم، فإنهما ظنّا أن أحداً لا يقسم بالله كاذباً، ويمكن أن يقال: إن اللعين لما وسوس لهما فلم يقبلا منه، عدل إلى اليمين فلم يصدقاه أيضاً، فعدل إلى شيء آخر فدلاهما بغرور، وهو أنه شغلهما بنيل اللذات حتى صارا مستغرقين فنسيا النهي، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها، أخذتهما العقوبة، وشؤم المعصية، فظهرت لهما عوراتهما، وأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا، وكان لباسهما من ثياب الجنة. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ طفق من أفعال الشروع، كأخذ، وجعل، أي أخذا يضمّان ورقة

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

على ورقة، ويلصقانها على أجسامهما، والخصفُ: ضمُّ الورق بعضه إلى بعض، أشبه بالخَرْز للنعل ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي على سوأتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ذلك من ورق التين أو الموز ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أحذّركما من الأكل من تلك الشجرة ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة، وهذا عتاب على الاغترار بقول العدو اللعين.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أي أضررنا بها بالمعصية، والإخراج من الجنة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ بالرضا علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ممن خسروا أنفسهم وسعادتهم.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض، بعضكم عدو لبعض، ولكم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى حين انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي تحيون في الأرض، مدة العمر المقدر لكل منكم، نظيره قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ خطاب لكافة الناس، أي يا أبناء آدم ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي خلقنا لكم ذلك، بأسباب نازلة من السماء، كالمطر الذي ينبت به القطن، الذي يُجعل لباساً، وجميع بركات الأرض، تُنسب إلى السماء، والإنزال بمعنى الخلق كما قال الله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فيه بَأسٌ شديدٌ﴾ أي خلقنا الحديد، وفي التعبير بالإنزال تعظيم للنعمة، كما تقول: رفعتُ حاجتي إلى فلان ﴿ يُوَٰرِى ﴾ أي يستر ويُخفي ﴿ سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ أي عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها، وقد كان العرب يطوفون بالبيت عرياناً، كما تلاعب فيهم الشيطان، فأغواهم بخلع الملابس، كما أغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقيب ذكر ظهور السوءات، إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة، من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر بابٌ عظيم من أبواب التقوى ﴿ وَرِيشًا ﴾ لباس الزينة[1]، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري عوراتكم، ولباساً يزينكم ويجمّلكم في المساجد والمجالس، وتفسير الريش بالزينة مرويٌّ عن ابن زيد ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي خشية الله والورع، خير ما يلبسه الإنسان[2] ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي لباس التقوى خير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إنزال اللباس ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الدَّالة على فضله، وعميم رحمته على عباده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته ويشكرونها، ويتورعون من العصيان والقبائح.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢١٦: يمتن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباسُ ستر العوراتُ وهي السوءات، والرياشُ والريش ما يُتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من الزيادات والكماليات. اهـ.

(٢) في الآية الكريمة استعارة لطيفة فقد شبَّه تعالى الإيمان والورع والخشية باللباس الذي يستر الجسم والعورة، ويخفي القبائح، ويزيّن الإنسان ويجمّله، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ كما أن الريش في قوله تعالى: ﴿يواري سوآتكم وريشاً﴾ مستعار من ريش الطير، لأنه زينته ولباسه.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير من أقوى الأساليب في التأثير ﴿ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي لا يوقعنّكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي لا تغفلوا عن وسوسة الشيطان لكم، والنهي وإن كان متوجهاً إلى الشيطان، لكنه في الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما في قولك لا أرينك ههنا ﴿ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر منهما العورات، وسميت العورة سوأة، لأن العاقل يسوؤه كشفها ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ القبيل جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة، التي يقابل بعضهم بعضاً، أي إن الشيطان يراكم هو وجنوده وأتباعه ﴿ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ أي من حيث لا ترونهم أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره، ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم، لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم، قال ذو النون: إن كان الشيطان يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله البصير الستار، ويشهد لما قلنا ما صح لرؤيته ﷺ للشيطان، ولبعض الجن ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المقارنة في الشر، أولياء، أي أعواناً وقرناء مسلّطين عليهم، بسبب الكفر والضلال.

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ أي وإذا فعل المشركون عملاً قبيحاً كالطواف حول البيت عراةً[1]، وهو المراد بالفاحشة ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء عليه سبحانه، وقد كانت شبهتهم الشيطانية، هي أنهم يقولون: لا نطوف ببيت الله في لباس عصينا فيها الله، ونطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي لا يأمر بالقبيح، وعادتُه تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال، وهذا تكذيب لهم على ذلك الافتراء ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ الهمزةُ للإنكار والتوبيخ، أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح، من غير علمٍ ولا دراية؟.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، أمر ربي بالعدل في الأمور كلها ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ وتوجهوا إلى عبادته تعالى، مستقيمين غير عادلين عن شرعه ودينه ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ في كل وقت سجود ﴿ وَٱدْعُوهُ ﴾ واعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي الطاعة، فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ كما أنشأكم من الأرض تعودون إليها، بقدرته ابتداءً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم، وإنما شبَّه الإعادة بالإبداء، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، والآية كقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الخبر «تبعث كل نفس على ما ماتت عليه».

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ بأن وفَّقهم للإيمان ﴿ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ وهم الكافرون ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي حقت عليهم الضلالة،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه قال: كانت العرب تطوف حول البيت عراة، وكانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... فما بدا منه فلا أحلُّه

فأمر الرسول ﷺ ألاَّ يطوف بالبيت عريان. وانظر جامع الأصول ٤/ ١٣٩.

لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، ومعنى ﴿حق﴾ أي ثبت بأسبابها الكسبية، لا أنها جعلت غريزة لهم، وهذا دليل على أن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتولِّيهم الشياطين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على هدى ورشاد.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي ثيابكم لمواراة عوراتكم، والزينة: ما يزين الشيء، والمراد هنا الثياب الحسنة المعتادة، بدليل الإضافة، وأقل هذه الزينة ما يستر عورته، وما زاد على ذلك من التجمل عند الصلاة، ولا سيما في صلاة الجمعة والعيدين سنة لا واجب، ولكنَّ إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة بحسب عرف الناس ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مما طاب لكم، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم اللحم والدسم، يعظّمون بذلك حجَّهم، فهمَّ المسلمون أن يفعلوا مثله، فنزلت الآية ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بتحريم الحلال، وبالإفراط في الطعام، قال ابن واقد: جمع الله تعالى الطبَّ في نصف آية، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرضى فعلهم، ولا يحب طريقتهم، وهذا وعيد شديد لمن أسرف.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

﴿ٱلرِّزْقِ﴾ المستلذات من المآكل، والمشارب، والملابس، وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والمشارب، والملابس الإباحة، لأن الاستفهام إنكاري، وفي الحديث: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه»[1] ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالة، و الكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع، وفي الآية إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الدنيا و﴿خَالِصَةً﴾ للمؤمنين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والبيان نفصِّل الأحكام، ونبيِّن ونوضّح الآيات التشريعية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة، وسنن الاجتماع، وطبائع البشر، وهذا التفصيل من الآيات العلمية، شاهدة على نبوته ﷺ لأنه خلاصة علوم كثيرة، فاصلة بين النافع والضار لا يعلمه ﷺ وإنما هي وحي من الله تعالى له.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي ما تزايد قبحه من الذنوب ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي جهرها وسرها وعن ابن عباس ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزنا علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا سراً ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي ما يوجب الإثم، وهو تعميم بعد تخصيص، ويراد به جميع المعاصي، وقيل: إن الإثم هو شرب الخمر، كما نُقل عن ابن عباس، والحسن، وذكره أهل اللغة وأنشدوا قول الشاعر:

نَهَانَا رَسولُ الله أنْ نقرَبَ الزِّنَا
وأَنْ نَشْربَ الإثْمَ الَّذي يُوجِبُ الوِزْرَا

(١) أخرجه الترمذي في الأدب رقم ٢٨٢٠ بلفظ «إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده» وقال ﷺ للأحوص: «إذا آتاك الله مالاً، فليُر أثرُ نعمة الله عليك وكرامته» أخرجه النسائي في الزينة، وانظر جامع الأصول ١٠/٦٥٨.

وقال الآخر: شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي الظلم والاستطالة على الناس، أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة توضيح وبيان، لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة وبرهاناً، وفيه تهكم بالمشركين، وتحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه، كقولهم: ﴿والله أَمَرَنَا بِهَا﴾ وهو أعظم أصول المحرمات، بل هو أصل الأديان الباطلة، فما من أمة ارتكبت هذا إلاّ سلبها الله سعادتها، فإنَّ الكذب على الله أساسُ الكفر والضلال.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكة ﴿أَجَلٌ﴾ أي وقت معيَّنٌ لنزول العذاب بهم، وفيه وعيد لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكها المقدَّر، والمراد من مجيء الأجل قربُه، أي إذا حان وقرب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ منه ﴿سَاعَةً﴾ برهة من الزمان، فإنها مَثَلٌ في غاية القلة، وليس المراد بها الساعة في مصطلح الناس ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يتقدمون عليه، وهو عطف على يستأخرون للمبالغة في انتفاء التأخر، بنظمه في سلك المستحيل عقلاً، وأجل الأمة على نوعين: **أحدهما**: أجل من يبعثه الله فيهم. من الرسل لهدايتهم، فيردُّون دعوتهم، كِبراً وعناداً، فيكذِّبون فيهلكون، وبهذا هلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل، وانتهى ببعثة صاحب الرسالة العامة ﷺ. **والنوع الثاني**: الأجل المقدَّر لحياة الأمم، سعيدة، وعزيزة بالاستقلال،

والرفاه، التي تنتهي بالشقاء والمهانة، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمراني، وأسبابُه محصورة في مخالفة هدى الآيات، بالإسراف باقتراف الفواحش والآثام، والبغي على الناس، فما من أمة من أمم الأرض، ارتكبت هذه الضلالات وكثرت فيها المنكرات، إلا أهلكها الله[1].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى كافة الناس، اهتماماً بشأن البشر ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي إن جاءكم رسل كائنون من جنسكم، لأنهم إذا كانوا من جنسهم، كان أقطع لعذرهم، لأنهم يعرفونه وأحواله ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي يبيِّنون ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم الشرك والتكذيب، وأصلح عمله، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة التي تَقُصُّ وتُبيِّن أحوال الأمم، وأمور الدين ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ ولم يقبلوها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لتكذيبهم، وإدخال الفاء في خبر ﴿من اتقى﴾ ولم يدخل في خبر ﴿الذين كذبوا﴾ للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ﴾ أي لا أحد أظلم ممن

---

(١) يدل على هذا قول الرسول ﷺ لأم المؤمنين زينب رضي الله عنها حين سألت الرسول فقالت: «يا رسول الله: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخَبَثُ» أي إذا كثر الفسوق والفجور، رواه البخاري.

تقوَّل على الله ما لم يقله، أو كذَّب ما قاله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أي يصيبهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مما كُتِب لهم وقُدّر من الأرزاق، والآجال، مع ظلمهم وافترائهم، لا يُحرمون ما قُدّر لهم من ذلك إلى انقضاء أجلهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه، والمراد بهم هنا ملائكة العذاب ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي لقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الرسل لهم توبيخاً وتهكماً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتستعينون بها في المهمات؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي غابوا عنَّا، لا ندري أين مكانهم؟ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ أي عابدين لما لا يستحق العبادة، حيث اتضح لهم حاله وضلاله، وما ذُكر إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخسران، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأن الطوائف مختلفة والمواقف عديدة، والأحوال شتى.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني كفار الجن والإنس، قدم الجن لمزيد شرهم ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ وفيه إشعار بأنهم يدخلون النار فوجاً فوجاً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاقتداء بها، فيلعن الأتباع القادة، يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد

فلعنكم الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ غاية لما قبله أي يدخلون فوجاً فوجاً لاعناً بعضهم بعضاً، إلى انتهاء تلاحقهم، باجتماعهم في النار، والإدراكُ: اللحاق ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ منزلة وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي لأجلهم، إذ الخطابُ مع الله تعالى لا معهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ أي دَعَوْنا إلى الضلال فاقتدينا بهم ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفاً كما روي عن مجاهد ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي من نار جهنم، لأنهم سبب ضلالنا ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أمّا القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأمّا الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الآخر، فلذا طلبتم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في الضلال، وفي استحقاق العذاب الأليم، عَنَوْا بالفضل تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم وكفركم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذا نوع آخر من جزاء المكذبين ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ عن الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم، ولا تعرج إليها أرواحهم، كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم لتتصل بالملائكة وفي الحديث الشريف: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة، التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروحٍ ورَيْحان، وربٍّ غير غضبان، يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى

السماء السابعة»[1] الحديث. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ هو البعير زوج الناقة، والعرب تضرب به المثل، في عظم الخلقة، كقول الشاعر: لقد عظم البعيرُ بغير لُبٍّ ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرم وهو البعير، فيما هو مثل في ضيق المسلك، وهو ثقب الإبرة، وذلك مستحيل لا يكون أبداً، فكذلك ما توقف عليه[2]، وقد كثر مثل هذا في كلامهم، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغُرابُ، وحتى يَبْيَضَّ القَارُ، ومرادهم لا أفعل كذا أبداً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أهل العصيان والإجرام.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش ومسكن ومضجع من نار جهنم، وتنوينُه للتفخيم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أغطية وهي اللُّحُف، والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[3] والمراد أنَّ النار محيطة بهم من جميع الجوانب، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «هي طبقاتٌ من فوقه، وطبقاتٌ من تحته..»[4] الحديث ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى، للتنبيه على أنهم بتكذيبهم الآيات، واستكبارهم عنها، جمعوا صفتين: الإجرام، والظلم، ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم، ما في إعداد المهاد، والغواش لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة ما فيه!!.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٦٤ ورواه النسائي، والبيهقي، والحاكم وصحَّحه، وانظر تمامه في تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٢.

(٢) هذا تمثيل بالغ الروعة في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، أي إنهم لا يدخلون الجنة، إلا إذا أمكن دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على ضيقه وصغره.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٦.

(٤) أخرجه ابن مردويه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بآياتنا ولم يكذّبوا بها ﴿ وَعَمِلُواْ ﴾ الأعمال ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ على الوجه الذي دعتهم إليه الرسل، وهذا بمقابلة الاستكبار عنها ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ أي ما تقدر عليه بسهولة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا على عادته سبحانه في أن يشفع الوعد بالوعيد و﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ اعتراضٌ بين المبتدأ وخبره، للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ولا يشقُّ عليهم.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي أخرجنا من قلوبهم أسباب الغِلّ، حتى لا يكون بينهم إلا التواد، وعن علي كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم»[1] وصيغة الماضي للإيذان بتحققه والغل: الحقدُ. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا ـ أي خلصوا من الذنوب كلِّها ـ أُذن لهم في دخول الجنة»[2] الحديث. ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن قتادة عن علي رضي الله عنه، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المظالم ٥/ ٧٠ وتتمته: «فو الذي نفس محمد بيده، لأَحَدُهم أهدى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا».

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي للإيمان الصحيح، والعمل الصالح، لتحصيل هذا النعيم العظيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي ولولا هداية الله وتوفيقه، لما وصلنا إلى هذه السعادة، وهذا القولُ من أهل الجنة، لإظهار السرور بما نالوا، والتلذذ بالتكلم به، لا للتعبد، فإن الدار ليست دار تكليف، بل هي دار تشريف ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وسروراً، أي والله لقد جاؤوا بالحق، وهذا مصداق ما وعدونا من الجزاء على التوحيد، والعمل الصالح، ولا يخفى ما في هذه الآية، من الرد الواضح على المعتزلة، الزاعمين أن كل مهتدٍ خَلَق لنفسه الهدى، فاعرض قول المعتزلة في الدنيا: المهتدي من اهتدى بنفسه على قول الله تعالى حكاية عن قول الموحدين ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هدانا الله﴾ واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ أي نادتهم الملائكة ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ومعنى البعد في اسم الإشارة، لرفع منزلتها، وعلوِّ شأن أهلها ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي أعطيتموها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم الصالحة، سمَّاها ميراثاً، لأنها لا تُستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله كالميراث، وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال ﴿بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ لا بالتفضل، ولا يخفى أنه لا محيص لأحدٍ عن فضل الله تعالى، لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة مما لا يكاد يعقل، وقصارى ما يُعقل أن الله تعالى تفضَّل فرتَّب عليها دخول الجنة، فلولا فضله لم يكن ذلك، فإنَّ مآل كلامهم فيه، أن الجنة ونعيمها مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم في ذلك، بل هو بمثابة ديْنٍ أدي إلى صاحبه، سبحان الله هذا بهتان عظيم، وتكذيب لخبر صحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٥٢ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ بعد الاستقرار فيها، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع والمعنى ينادي ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ ﴾ أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها، تبجحاً بحالهم وشماتةً بأعدائهم، وتحسيراً لهم، لا لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ على ألسنة رسله ﴿ حَقّٗا ﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل والكرامة العظمى ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾؟ من العذاب والخزي والهوان؟ ولا يستبعد هذا النداء هناك، على بعد ما بين الجنة والنار من المسافة ﴿ قَالُواْ ﴾ في جواب أهل الجنة ﴿ نَعَمۡۚ ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ ﴾ قيل: هو «مالك» خازن النار، وقيل: ملكٌ من الملائكة، يأمره الله تعالى بذلك ﴿ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي الفريقين ﴿ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ والمراد الإعلام بلعنة الله تعالى لهم، زيادة لسرور أصحاب الجنة، وجزع أصحاب النار.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يستكبرون بأنفسهم عن دينه سبحانه، ويمنعون الناس عن دين الإسلام، بالنهي عنه، وإدخال الشبه في دلائله ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ أي يطلبون الاعوجاج والتناقض لها، ويصفونها بالزيغ، والميل عن الحق ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي غير معترفين بالقيامة وما فيها.

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ ﴾ .

﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ ﴾ أي بين الفريقين حجاب عظيم يمنع وصول أحدهما

على الآخر، وإن لم يمنع وصول النداء، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي على أعاليه وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين، قصَّرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النّار، جُعلوا هناك حتى يُقْضَى بين الناس، لأن المقالات الآتية وما تتفرع عليه لا تليق بغيرهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة، والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماتهم كبياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، والسيما: العلامةُ ﴿وَنَادَوْا﴾ أي رجال الأعراف ﴿أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق الدعاء والتحية، أي سلمتم من المكاره ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملة حالية، أي نادوهم وهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في دخولها [1].

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف، وفيه إشارة إلى أن صارفاً صرف أبصارهم، لينظروا من غير رغبة منهم، وهي تدل على هول المطلع ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تلقاء مصدر بمعنى الجهة، أي وإذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار ﴿قَالُوا﴾ متعوّذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مع هؤلاء الأشقياء في النار، وهذا دعاء أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكان مصيرهم مجهولاً.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

(١) قال ابن مسعود والحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم، إلاَّ لخيرٍ أراده لهم، وإنما طمع أصحاب الأعراف، لأن النور الذي كان في أيديهم، لم يُطفأ حين طُفىء كلُّ ما بأيدي المنافقين ا.هـ المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥١٦.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ كرَّر ذكرَهُم مع كفاية الإضمار، لزيادة التقرير والتأكيد ﴿رِجَالٗا﴾ من رؤساء الكفرة، حين رأوهم بين أصحاب النار ﴿يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا بأسمائهم وما يدعون به من الصفات ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾؟ أي ما الذي دفع عنكم؟ وهل نفعكم أتباعكم وأنصاركم وجمعكم للمال؟ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي واستكباركم عن قبول الحق؟.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم؟ والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة، الذين كان الكفرة يحقّرونهم في الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، كسلمان، وصهيب، وبلال، ونحوهم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كلام أصحاب الأعراف أيضاً، أي قالوا لهم: ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعد هذا اليوم ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي غير خائفين ولا محزونين، ادخلوا الجنة على أكمل سرور، وأتم حبور، مع الخلود في دار النعيم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار، واطمأنت به الدار ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ﴾ أي صبُّوا ﴿عَلَيۡنَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة والأطعمة، على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة، وفي الآية دليل على نهاية عطشهم، وشدة جوعهم، يقولون ذلك مع اليأس، وهذا كما يقال في المثل: «الغريق يتعلق بالزَّبَد، وإن علم أنه لا يغيثه» ﴿قَالُوٓاْ﴾

في جوابهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي منعهما منع المحرَّم عن المكلف، ولما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب، عذَّبهم الله في الآخرة بشدة الجوع، والعطش، جزاءً وفاقاً!.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي جعلوا الدين سخرية ولعباً فحرّموا ما شاؤوا، وأحلّوا ما شاؤوا ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها العاجلة، ومواعيدها الباطلة، وخدعهم ما هم فيه من خصب العيش عن الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ أي نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتداد بهم، وتركهم في النار، تركاً كلّياً[1] ﴿كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدّوا له، والجزاء من جنس العمل.

شبَّه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم، وعدم استعدادهم له، بحال من عرف شيئاً ثم نسيه ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكرين أنها من عند الله، فالمعنى: نتركهم في النار تركاً مستمراً، كما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بيَّنا معانيه من العقائد، والأحكام، والمواعظ، مفصَّلة تمام التفصيل، هاديةً إلى الرشد ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على

(١) قال ابن عطية: النسيان في هذه الآية بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ا.هـ المحرر الوجيز ٥/ ٥٢١.

علمٍ منّا بوجه تفصيله، مما يحتاج إليه المكلفون لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم وسعادتهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لأنهم هم المغتنمون من آثاره، والمقتبسون من أنواره.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾؟ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة، إلاَّ وقوع ما يؤول إليه أمره؟ بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك الناسي له، فأعرضوا عنه، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي تبين لنا أنهم جاؤوا بالحق، فأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء[1] ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلّصنا من هذا العذاب، أو يدفع عنّا ما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل لنا عودة إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ أي فنحن نعمل ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعاصي، وقبيح الأعمال ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم، إلى الشرك والمعاصي ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وفقد ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ظهر لهم بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شفعاؤهم يوم القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية في مقدار ستة أيام

---

(١) قال الطبري: أقسم المساكين حين حلَّ بهم العقاب، أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة، ونصحت لهم، وصَدَقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال. جامع البيان ١٢/٤٠٨.

من أيام الدنيا، وفي خلق الأشياء بالتدرُّج مع القدرة على إبداعها دفعة، دليل على الاختيار، واعتبار للنُظَّار، وحثٌّ على التأني في الأمور[1] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الاستواء على العرش، صفةٌ لله تعالى بلا كيف، والمعنى أن له تعالى استواءً على العرش على الوجه الذي عناه، منزهاً عن المشابهة لأنه تعالى كان قبل العرش، ولا مكان له وهو الآن كما كان، منزَّه عن كل ما يشابه الخلق في جميع صفاته جل وعلا[2] ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، غشي الشيءُ الشيءَ أي: غطَّاه، والمعنى: أن الله تعالى قد جعل الليل وهو الظلمة، يغطي النهار وهو ضوء الشمس ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يعقبه سريعاً، كالطالب له، لا يفصل بينهما شيء، محمولاً على السرعة حتى يدركه ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي خلقها حال كونها مسخرات بقضائه وتصريفه، إذ هي ليست قادرة بنفسها، وإنما يتصرفن على إرادة المدبر لهنَّ، وهذه الأجرام العظيمة منقادة لإرادته تعالى، وإفراد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في النجوم، لإظهار شرفهما عليها، لما فيهما من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تُعرف الأوقات ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف، الموجد للكل، والمتصرف فيه على الإطلاق، يفعل

---

(١) قال القرطبي ٧/ ٢١٩: لو أراد الله لخلقها في لحظة، ولكنه أراد أن يعلّم العباد التثبت في الأمور.

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفاتِ تمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف؟ ولا أين؟ نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ. اهـ أقول: هذا مذهب السلف ـ وهو الحقُّ ـ أننا نؤمن بما ورد في القرآن العظيم، من صفات الرب الجليل، بلا تشبيهٍ ولا تعطيل، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم علاَّم الغيوب. قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣٠: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارُها كما جاءت، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهرُ المتبادرُ إلى أذهان المشبِّهين، منفيٌّ عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

ما يشاء، ويحكم ما يريد[1] ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تقدس وتنزَّه جلَّ وعلا عن كل نقص، فهو الخالق المبدع للكائنات، الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ خَلقه.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ بعد أن بيَّن التوحيد، وأخبر أنه المنفرد بالربوبية، والمتفرد بالخلق والأمر، أمر عباده أن يدعوه مخلصين له الدين، والدعاء هو مخُّ العبادة، أي ادعوه بخشوع واستكانة، فلا ينبغي الجهر الكثير والصياح، والخفية ضد العلانية. قال الحسن البصري: «كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلاَّ همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنه تعالى يقول: ﴿ادعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً﴾ وإنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً رضيَ له فعله، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّه نداءً خَفِيًّا﴾!!» وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: أيها الناس إِرْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم..»[2] الحديث، قوله: «اربعوا» أي ارفقوا واقصروا، والمراد عدم رفع الصوت بالدعاء، وحسبك في فضل الإسرار به، اقترانُه في الآية بالتضرع، وإن دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى، عديم الوقار.

---

(١) هذا من الأسلوب البياني البليغ، فقد جمعت هذه الآية ـ على وجازتها ـ جميع الأمور والشؤون على وجه الاستقصاء، فله سبحانه الملك والملكوت، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والفصل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فقد جمعت الألفاظ القليلة، والمعاني الكثيرة، وهذا ضرب من إعجاز القرآن ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات ١١/١٥٩ ومسلم في الذكر رقم ٢٧٠٤ باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللَّغَطُ ويشتدَّ، وتستك المسامع وتستدَّ، ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وكون ذلك في المسجد، روي عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء، من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء، دخولاً أولياً، ونبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء، والصعود إلى السماء، وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه، وفي الحديث الشريف: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعتَدِينَ﴾»[1].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهي عن سائر أنواع الإفساد، كإفساد النفوس، والعقول، والدين، والأموال، والأنساب، والآداب، ونحو ذلك ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي إصلاح الله تعالى لها، وخلقها على الوجه الملائم، لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين، وبعث الأنبياء فيها ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، وقيل معناه: كونوا جامعين بين الخوف، والرجاء، والآية الأولى لبيان شرط الدعاء، وهذه لبيان فائدته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريب من المحسنين في أعمالهم، وشؤونهم وسائر أمورهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢٨ وأبو داود رقم ١٤٠٨ ولفظه عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال لي يا بُنيَّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإيّاك أن تكون منهم، إنك إنْ أُعطيتَ الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذت من النار أُعذت منها وما فيها من الشرِّ».

أحسن العبادة نال الثواب، ومن أحسن في الدعاء، استجيب له، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه فسَّر المحسنين بالمؤمنين. وقال مطر الورَّاق: «استنجِزُوا موعودَ الله بطاعته، فإنه قضىٰ أن رحمته قريب من المحسنين»[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا ﴾ أي مبشرات بالخير، لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أي قُدَّام رحمته التي هي المطر، والمطر سمي رحمة، لأنه سبب لحياة الأرض الميتة، وعن ابن عمر أن الرياح ثمانية: أربع منها عذاب، وهي: القاصفُ، والعاصف، والصرصر، والعقيم، وأربع منها رحمة، وهي الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريحُ من رَوْح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله تعالى من خيرها، واستعيذوا من شرّها»[2] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ ﴾ أي رفعت وحملت ﴿ سَحَابًا ﴾ أي غيماً، سمي بذلك لانسحابه في

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، كذا في تفسير الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٥٠٩٧ باب ما يقول إذا هاجت الريح، ورواه الترمذي في الفتن رقم ٢٢٥٣ بلفظ «لا تسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنَّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرتْ به، ونعوذ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرت به» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الهواء ﴿ثِقَالًا﴾ من الثِّقْل، فهو ثقيل، وثِقْلُ السحاب بما فيه من الماء ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لمنفعته ولإحيائه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبلد القاحل المجدب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من كل أنواعها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه، وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من القبور، ونحييها بردّ النفوس إلى مواد أبدانها، بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك، قدر على هذا من غير شبهة.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، والمرادُ بذلك أن يكون حسناً، وافياً غزير النفع[1] ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ كالحرَّة والسَّبْخَة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي قليلاً لا خير فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف البديع ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، وأصلُ التصريف: تبدلُ حال بحال، ومنه تصريف الرياح ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، وشكرُ ذلك بالتفكر فيها، والاعتبار بها، وهذا مَثَلٌ لإرسال الرسل بالشرائع، التي هي ماء حياة القلوب وللمكلَّفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها، والمحرومين من مغانم آثارها، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن، يقول هو طيبٌ، وعمله طيب، والذي خَبُث مَثَلٌ للكافر، يقول: هو خبيث، وعملهُ خبيث وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به، من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة ـ أي قطعة طيبة ـ قبلت الماء، وأنبتت الكلأ والعشب الكثير،

---

(١) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالأرض إذا كانت طيبة التربة، يخرج النبات فيها أخضر زاهياً وافياً، كذلك مثل المؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالبلد الطيب ثمره طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث، كالأرض السبخة المالحة التي لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها بشيء إلا ظهور البعوض والحشرات، وانظر الطبري ٨/ ٢١٢.

وكانت منها أجادب ـ جمع أجدب وهي الأرض التي لا تنبت ـ أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منه، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيَعانٌ ـ جمع قاع، وهي الأرض المستوية ـ لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله، ونَفَعه اللهُ ما بعثني به، فعلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هُدَى اللهِ الذي أرسلتُ به»[1].

ثم إنه سبحانه وتعالى عقَّب ذلك بما يحققه ويقرِّره من قصص الأمم الخالية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فقال تقدست أسماؤه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هو جواب قَسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحاً شيخ الأنبياء، إلى قومه الكفرة المفسدين، الذين عبدوا الأصنام، فمَكَث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وهو أول نبيّ عذَّب الله تعالى قومه بالغرق بالطوفان ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وحده ولا تشركوا معه أحداً، فناداهم بصفة القوم ﴿يا قَوْمِ﴾ مضافة إليه، لاستمالتهم إلى العبادة ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ أي مستحق للعبادة ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ما لكم في الوجود إله غيره ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، ووصفُ اليوم بالعِظَم، لبيان ما يقع فيه، وإنما قال عليه السلام ﴿أخافُ﴾ ولم يقطع حنواً عليهم، واستجلاباً لهم بلطف.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ١٨٥ في العلم، ومسلم رقم ٢٢٨٢ في الفضائل.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أي الرؤساء من قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي ذهاب عن طريق الحقِّ والصواب ﴿مُّبِينٍ﴾ أي واضح كونه ضلالاً، بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا، الذين هم شفعاء لنا عند الله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أيُّ شيءٍ من الضلال، رداً على الكفرة، حيث بالغوا في إثباته له، بحيث جعلوه مستقراً في الضلال، ولم يقل: ضلال فإن التاء للمرة، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقلُّ قليل من الضلال، فضلاً عن الضلال المبين!! ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن كونه رسولاً من الله تعالى مبلغا لرسالاته، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى، أيْ أنا رسول وأيَّ رسول كائن من رب العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أي أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وجَمَع الرسالات لتنوع معانيها، كالعقائد، والأحكام، والمواعظ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عطف على أبلغكم، والمعنى: أبلغكم جميع تكاليف الله تعالى، وأرشدكم إلى الوجه الأصلح، وأحذركم عقابه إن عصيتموه وقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من جهته تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتية، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرته على أعدائه، وسننه، في نظام العالم وما ينتهي إليه ما لا تعلمونه أنتم، قيل: كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا غافلين لا يعلمون ما يعلمه نوح.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّر كأنه قيل: استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من ربكم

﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من قومكم، وقلتم لأجل ذلك ما قلتم؟ كانوا يقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيث إنه تعالى في غاية التقدس، والبشر في غاية الضعف والتكدر، فأنكر نوح عليهم بأن الرسول يكون ذا جهتين: يستفيض من عالم الغيب بتجرده، وصفاء روحه، ويُفيض لبني نوعه بجهة مشاركته لهم في البشرية ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ومعاصيكم ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي استمروا على تكذيبه، وأصرُّوا بعد أن قال لهم ما قال، ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي من الغرق، والإنجاء من قصد أعداء الله تعالى له ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين وكانوا على ما قيل أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بسبب تكذيبهم المستمر وليس المراد بهم الملأ فقط، بل كل من أصرَّ على التكذيب منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عُمْيَ القلوب، غير مستبصرين، يقال عَمٍ في البصيرة، وأعمى في البصر، أي عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً منهم

كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله؟ والاستفهام للإنكار. ولما كان قوم هود، قد علموا ما حلّ بقوم نوح من الغرق، حسن قوله هنا ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب؟.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الوصف هنا للذم، ومقتضى المقام يقتضي ذمهم، لشدة عنادهم، كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي متمكناً في خفة عقل، حيث فارقت دين آبائك، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي فيما ادعيت من الرسالة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ليس بي والحمدُ لله، أدنى شيء من شوائب السفاهة، والخِفَّة، ولكنني مرسل لهدايتكم من ربِّ العزة والجلال.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي ليس بي ما تزعمون وإنما أنا رسول ناصح مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي هل عجبتم لأن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم لقاء الله، ويخوفكم عذابه؟ وفي الآية دلالة على جواز مدح الإنسان نفسه للحاجة إليه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي بعد أن أهلكهم وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي زادكم في الناس على أمثالكم ﴿بَصْۜطَةً﴾ قوة وزيادة جسم ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا نعم الله واشكروها له ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي يفضي شكرها المؤدي لكم إلى الفلاح والنجاح.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا ﴾ يا هود تتوعدنا بالعذاب ﴿ لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ ﴾ أي نهجر ما كان عليه آباؤنا من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إنذارك لنا بنزول العذاب، وهذا منهم منتهى العناد والطغيان.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم ﴾ أي وجب وحقَّ عليكم بإصراركم على الكفر والضلال ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من جهته تعالى: ﴿ رِجْسٌ ﴾ عذاب مهين كأنه نتن وقذر ﴿ وَغَضَبٌ ۖ ﴾ وهو إرادة الانتقام، وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أي آلهة ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ أي ليس عندكم حجة ولا برهان من عند الله على عبادتها ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ نزول العذاب الذي طلبتموه. ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ لنزوله بكم.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ ﴾ الفاء فصيحة، أي فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ في الدين ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمة لا يقادر قدرها ﴿ مِّنَّا ﴾ من جهتنا ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ ﴾ الدابر أصل الشيء أو آخره، وهو هنا كناية عن عذاب الاستئصال، أي أهلكناهم بالكلية حيث جاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ﴿ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أصرُّوا على الكفر والتكذيب، ولم يرعووا عن ذلك أصلاً، وفائدة هذا النفي، التنبيه على أن مناط النجاة، هو

الإيمان بالله تعالى، كما أن مدار البوار، هو الكفر والتكذيب، فهو كالعذر عن عدم إمهالهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام، وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود المنتسب إلى سام بن نوح ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد، حيث سلك كل واحد منهم مسلك الآخر، ومن سنة القرآن الكريم في قصص الأنبياء، أن يذكر ما كان منها للعبرة والموعظة، لا أخبار حوادث الأمم مرتبة بحسب الزمان، وقد حكى هنا عن صالح، وأنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر الآية بعد رد الدعوة، وكل ذلك صحيح ﴿ هَٰذِهِۦ

﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ إضافة الناقة إلى الاسم الجليل، لتعظيمها، كبيت الله، ولمجيئها بلا أسباب من صخر أصمّ، ولأنها حجة الله تعالى على نبوته، وقوله ﴿لَكُمْ﴾ بيان لمن هي آية ﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آيةٌ من آيات الله تعالى أي فاتركوها ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب، وهو جواب الأمر أي الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، وعدم التعرض للشرب، إما للاكتفاء بذكر الأكل، ولتعميمه له أيضاً كما في قول القائل: «علفتها تبناً وماءً بارداً» أي وسقيتها ماءً بارداً وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[1] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهى عن المسِّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر، مبالغة في النهي، أي لا تتعرضوا إليها بشيء مما يسوءها أصلاً، إكراماً لآية الله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب أذاها[2].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض، ولم يقل خلفاء عاد مع أنه أخصر، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم، ومكَّنكم وجعل لكم مباءةً ومنزلاً في أرض الحِجْر ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ رفيعة فـ «مِنْ» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم، لطول أعمارهم، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء، في البيوت المنحوتة، لما فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول للزراعة

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٥٥.

(٢) يروى أن قوم صالح خرجوا في عيد لهم، وطلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية باهرة تدل على صدق رسالته، وأن يُخرج لهم من صخرة معينة ناقة عُشراء ـ أي حاملاً ـ فدعا ربه فخرجت الناقة كما طلبوا، وكانت معجزة من وجوه: أولاً خلقها من الصخرة، وثانياً أنها كانت حاملاً وولدت أمامهم، وثالثاً: كان لها شرب يوم ولأهل المدينة شرب يوم آخر، ومع ذلك أقدموا على قتلها فأهلكهم الله.

والعمل ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم الله بها عليكم، وآلاء جمع ألى بالقصر والفتح أي نعمة ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن حق الآلاء أن تُشْكَر، فلا يُغفل عنها، فكيف بالكفر!؟.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان، وعتوا وتكبروا ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ من قوم صالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي عُدُّوا ضعفاء أذلاء ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي قالوا للمؤمنين بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ الاستفهام للاستهزاء بهم، لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يُجبهم المؤمنون بأن يقولوا نعم، بل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من الأسلوب الحكيم، فكأنهم قالوا: العلم بإرساله لا كلام فيه ولا شبهة فيه لوضوحه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنّا به مؤمنون[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وضعوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ موضع أرسل به، للتخلص عن الإشعار بالإيمان بالرسالة، غلواً في الإصرار على الكفر، نكايةً بالمؤمنين.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ العقر: الجرحُ، وأصله قطع ساق البعير، واستعمل في النحر، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره، أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم، فكأنه فعل كلهم، كما قال الله تعالى في سورة القمر ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[2] ومثل هذا من أعمال الأفراد، ينسب إلى الأمة في جملتها ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمر الله، واستعجلوا النقمة ﴿وَقَالُواْ﴾ مخاطبين له بطريق التعجيز والسخرية

---

(١) قال في البحر ٤/ ٣٣١: هذا الجواب في غاية الحسن، إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم، لا يدخله ريب، لما أتى به من المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته، ولهذا قالوا في جوابهم ﴿إنَّا بما أُرسل به مؤمنون﴾.

(٢) سورة القمر ، آية: ٢٩.

﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فإن كونك من جملتهم، يستدعي صدق ما تقول، من الوعد والوعيد، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين بكل ما أخبرهم به من العذاب، فعجَّل الله لهم ذلك، ولهذا جاء اللفظ معطوفاً بالفاء، التي تفيد التعقيب.

فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة وقد رجفت بهم الأرض، وقال مجاهد هي الصيحة، وجمع بين القولين، بأنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم، والصيحة من فوقهم[1]، وجاء في موضع آخر الطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ولا منافاة بين ذلك، فإن الصيحة العظيمة حصل منها الرجفة لقلوبهم، ولعظمها وخروجها عن الحد المعتاد تسمى الطاغية، لأن الطغيان مجاوزة الحدِّ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ هامدين، وفي أرضهم خامدين، وأصل الجثوم البروك يقال: الناس جثوم أي قعود لا حراك بهم، أي أصبحوا هلكى عند نزول العذاب بهم، لا حركة ولا كلام، فقد خمدت أنفاسهم على التمام.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن جرى عليهم ما جرى، مغتماً متحسراً متحزناً عليهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي أسديت لكم النصح بالترغيب والترهيب، ولم آل جهداً فلم تقبلوا مني ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم، وخطابه عليه السلام كخطاب رسول الله ﷺ لأهل القليب ببدر حين نادى

---

(١) الرجفة: الزلزلة، والاضطراب الشديد، وقد اجتمع على قوم صالح الصيحةُ، والرجفة، وكانت مفرطة شقت قلوبهم، فجثموا على الأرض موتى لا حركة فيهم، فقد جمع الله بين الرجفة والصيحة، عقوبة على إجرامهم.

يا فلان، يا فلان بأسمائهم، وقال: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ رُوي أن صالح عليه السلام لما نجا هو والذين معه، قال لهم: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله تعالى عليها، فالحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلُّوا من ساعتهم بالحج، وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، وأنه عليه السلام توفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وفي الحديث «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم..»[1] الحديث. وفي الحديث حث على الاعتبار، والخوف عند المرور على ديار الظلمة، المهلكين بالعذاب والدمار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على ما سبق أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه، وإنما لم يذكر اسم المرسل إليهم، لأن قومه لم يُعهدوا باسم معروف، ولوط هو ابن هارون ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر مع إبراهيم إلى الشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي بلدة بحمص ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ بطريق الإنكار والتوبيخ أي أتفعلون تلك الفعلة، المتناهية في القبح، وهي اللواط؟ ﴿مَا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠ وتتمة الحديث: «ثم قنَّع رأسَه وأسرعَ السيرَ حتى جاز الوادي».

﴿سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي ما عمل قبلكم أحد مثل هذا المنكر الشنيع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، وهو أمر مستقذر، تعافه طباع الحيوانات، قال عَمْرو بنُ دينار: «ما نَزَا ذكَرٌ على ذَكَر قبل قومِ لوط[1]».

يعني أنهم أول من اخترع وابتكر هذه الفعلة الشنيعة، وهي إتيان الذكور في أدبارهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ لتأكيد الإنكار، وفي زيادة إنَّ، واللام، مزيد توبيخ، كأن ذلك أمر لا يتحقق من البشر، وفي إيراد لفظ ﴿الرِّجَالَ﴾ دون الغلمان مبالغة في التوبيخ، والإتيان كناية عن الاستمتاع، الذي عُهد بين الزوجين ﴿شَهْوَةً﴾ أي لأجل الاشتهاء لا غير، وفي التقييد بها، بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة، ولا ذَمَّ أعظمُ منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمة، وتنبيه على أن العاقل، ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة، طلب الولد، لا قضاء الشهوة فقط، وعمل تلك الفعلة القذرة الخبيثة ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي متجاوزين النساء، اللاتي هن أماكن الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي عادتكم الإسراف في كل شيء، وتجاوز الحدود فيها، فلهذا أقدمتم على هذه الرذيلة القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي المستكبرين منهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ إلا قول بعضِهم لبعض مستخفّين بنبيهم والمؤمنين ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من بلدتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ مقصود الأشقياء الاستهزاء والسخرية بلوط ومن معه، وبتطهرهم من الفواحش وتباعدهم عنها، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أخرجوه عنا وأريحونا من هذا المتزهد.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٠ ونقل عن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قوله: «لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ قصَّ علينا خبرَ قوم لوط، ما ظننتُ أنَّ ذَكَراً يعلو ذَكَراً».

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ أي المؤمنين منهم، وأتباعه من المؤمنين، سواء كانوا من ذوي قرابته أم لا ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسِرُّ بالكفر ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي نوعاً عجيباً من المطر، بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر، وهي حجارة من سجيل كما قال سبحانه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[1] ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ خطاب لكل من يأتي منه التأمل والنظر، تعجيباً من حالهم، وتحذيراً عن أعمالهم، وقد مكث لوط عليه السلام فيهم ثلاثين سنة، يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم فلم يجيبوه، وروي عن الزهري لمّا عذِّب قومه، لحق لوط بإبراهيم عليه السلام، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواطة من أعظم الفواحش. أخرج البيهقي عن أبي هريرة وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعةً من خلقه، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، فقال: ملعونٌ، ملعونٌ، ملعونٌ، من عَمِلَ عَمَل قوم لوط..»[2] الحديث.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين ابن إبراهيم،

---

(١) سورة هود، آية: ٨٢.

(٢) أخرجه البيهقي والحاكم وصححه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

واختلفوا في مدين، فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة وقيل هو اسم لماءٍ كانوا عليه ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي من النسب، وشعيب عليه السلام أُعطي قوة البيان والحجة، ولهذا قال ابن عباس: كان إذا ذكر شعيب يقول ﷺ: «ذلك خطيب الأنبياء»[1] . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المراد من البينة ههنا: المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، فهذه الآية دلت على أنها حصلت له، ودالة على صدقه، فأما تلك المعجزة ما هي؟ فليس في القرآن دلالة عليها، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، توجب عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي المكيال كما وقع في سورة هود، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالمِيزَانَ﴾ فإن المتبادر منه الآلة، بدأ تعالى بالتوحيد لأنه أساس العقيدة، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والوزن، لأن سنة الأنبياء إذا رأوا قومهم على نوع من أنواع المفاسد، بدؤوا بمنعهم عنه، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوا الناس حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، والبخس من خساسة النفس، ودناءة الهمة، ومتابعة الهوى والظلم، فالله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم، وهذا يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري، والعدوان على الأنفس، والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياءُ بالشرائع والأحكام ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من الوفاء، وترك البخس والإفساد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الكفر والظلم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

---

(١) أخرجه ابن عساكر وذكره ابن كثير ٢/ ٤٧٤ عن الثوري أنه يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ أي طريق من الطرق الحسيّة ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ تخوّفون من آمن بالقتل. روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقعدون على الطريق، يخوّفون الناس أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إنه كذّابٌ فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الطريق الموصلة إليه سبحانه وهي الإيمان ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بالله تعالى ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي تطلبون لسبيل الله الاعوجاج والانحراف، بإلقاء الشُّبَه، والتشويه لمحاسن الدين ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ فوفّر عددكم بالبركة في النسل، وكنتم فقراء فجعلكم موسرين، وكنتم أذلة فأعزكم وقوّاكم، فاشكروا الله تعالى بعبادته واتباع رسوله، وترك الفساد ﴿ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح، وهود، ولوط، واعتبروا بهم، واحذروا من سلوك مسالكهم.

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ ﴾ أي انتظروا، وفيه تهديد ووعيد ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ بحكمه العادل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه ولا ظلم[1].

---

(١) قال أبو حيان: وهذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة، إذ أبرزَ المتحقق في صورة المشكوك، وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ أي قال المستكبرون، البالغون من العتو والجبروت أقصاه، وهم أشراف القوم وقادتهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ أي والله لنخرجنك وأتباعك من بلدتنا، بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم، وكراهيةً لجواركم ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ أي ترجعون إلى ديننا وتصبحون مثلنا ﴿ قَالَ ﴾ شعيب رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي أتجبروننا وتكرهوننا على العودة في دينكم، ولو كنا كارهين لملتكم؟ وهو استفهام يُراد منه الإنكار على سوء صنيعهم القبيح، حيث يريدون إكراههم على الكفر.

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ ﴾ يقولون: إن عدنا إلى دينكم الأعوج، واتبعنا ما أنتم عليه من الباطل، بعد إذْ أنقذنا الله منه بالإيمان، نكون قد اختلقنا وافترينا على الله أعظم أنواع الكذب!! وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ ﴾ أي ما يصحُّ ولا ينبغي ولا يستقيم، أن نرجع إلى ملتكم ودينكم، في حالٍ من الأحوال، إلاَّ إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان، فيمضي فينا قضاؤه. أرادوا بذلك حسم طمعهم في العودة إلى دينهم، بالتعليق على مشيئة الله، وهذا ما لا يكون أبداً، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر. وهذا شأن المؤمن يردُّ كلَّ شيء إلى مشيئة الله، مع عزمه الجازم بالثبات على الإيمان، ولم يزل الأنبياء والأكابرُ يخافون العاقبة، ألا ترى قول خليل الرحمن عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ

نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟[1] وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك» ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة، ومشيئتُه على موجب الحكمة، أي أحاط علمه بكل شيء، مما كان وما يكون، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا إلى الكفر ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التوكل عليه سبحانه: إظهارُ العجز، والاعتمادُ عليه، أي اعتمدنا على الله وحده، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرُّع ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق، ليتميز المحقُّ من المبطل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي خير الحاكمين، لخلوّ حكمك عن الجور والحيف.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي قال أشرافهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه في الإيمان، وخافوا أن يؤمن قومهم ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه، وتركتم دين آبائكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي مغبونون خاسرون مضيِّعون لسعادتكم، لاستبدالكم الضلالة بالهدى، جعلوا اتباع شعيب على ما هو عليه من الهدى والإيمان، خسارة وشقاوة، ويا لهم من سفهاء!!.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة، وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[2] أي صيحة جبريل عليه السلام

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٥.

(٢) سورة هود، آية: ٩٤.

ولعلها كانت من مبادي الرجفة، فأسند إهلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم[1].

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي لم يقيموا في دارهم، وحاصل المعنى: أنهم عوقبوا بتوعدهم السابق لنبيهم بالإخراج، وصاروا هم المخرجين من القرية، إخراجاً لا دخول بعده، دون شعيب عليه السلام ومن معه، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الذين كذبوه عوقبوا بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ آسى: بمعنى أحزن، والمعنى: لقد أعذرتُ لكم في الإبلاغ والنصيحة، والتحذير، مما حلَّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدّقوني، فكيف أحزن عليكم؟ أي لا آسى عليكم، لأنكم لستم أحقاء بالأسى والتفجع. وفي قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ دون قوله: عليكم، وبإقامة الظاهر مقام الضمير، للإشعار بعدم استحقاقهم التأسف عليهم، لكفرهم وتماديهم في الضلال، كأنهم ليسوا قومه!؟ ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه، نزل مع المؤمنين بمكة حتى ماتوا هناك.

ثم ذكر تعالى سنته الإلهية، في الانتقام ممن كفر به، وكذَّب رسله، وعاقبة الطغاة المجرمين، بالاستدراج لهم من الشدة إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الغنى، فقال سبحانه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٢: وقد اجتمع لهم أنواع العقوبة: الرجفةُ، والصيحةُ، وعذابُ يوم الظُّلَّة، وهي سحابة أظلَّتهم، فيها شررٌ من نار ولهب، ووهجٌ عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفةٌ من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبيّ، فكذّبه أهلها، إلاّ أخذنا أصحابها، وعاقبناهم بالبؤس والفقر، والجوع والمرض، وأنواع البلايا والنكبات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا، ويلجؤوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنوبهم!!.

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنةِ، والفقرِ والمرضِ: الرخاءَ والسَّعَة، والغنى والصَّحَة، ابتلاءً لهم بالأمرين ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أي حتى كثروا ونَمَوْا، وأبطرتهم النعمة، يُقال: عفا النباتُ إذا كثُر ونما ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ أي قالوا كفراناً للنعمة: هذه عادة الدهر، وقد أصاب آباءنا مثل ذلك من البلايا والمصائب، فلا ينبغي لنا أن ننكره، وليست هذه بعقوبة من الله لنا، فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم، ولم ينتقلوا عنه، مع ما أصابهم، فاثبتوا أنتم على دينكم ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك، ولا يخطر ببالهم شيءٌ من المكاره، والأخذ فجأةً أشدُّ، وحسرته أعظم، لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء، يوطّن نفسه عليها، بخلاف حال الفجأة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي القرى المهلكة، الذين كذّبوا رسلهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله بدل كفرهم وعصيانهم، معتبرين بما جرى عليهم من السراء والضراء ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرَّم الله تعالى عليهم ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لوسَّعنا عليهم الخير، ويسَّرناهُ لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات، والبركةُ: الزيادة والنماء، وبركاتُ السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، والمواشي والأنعام، وكل ذلك بخلق الله تعالى وتدبيره ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ أي ولكنْ لم يؤمنوا ولم يتقوا، وقد اكتفى بذكر الأول، لاستلزامه الثاني، وللإشارة إلى أنه أعظم الأمرين ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، وفي الآية إشارة إلى أن الكفاية والسعة في الرزق، من سعادة المرء إذا كان شاكراً، ووبالاً إذا لم يشكر الله تعالى.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن أهل القرى المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً وقت نومهم وراحتهم، يقال: بات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً، والاسمُ البياتُ، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي وهم في فرشهم لا يشعرون.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إنكار بعد إنكار، للمبالغة في التوبيخ، ولم يقصد الترتيب بينهما، فلذا لم يؤت بالفاء ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي ضحوة النهار، بعد طلوع الشمس، والضُّحى: امتداد النهار، والضَّحْوةُ مثله، وجمعه ضحى، مثل قرية وقرى ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؟ مكرُ الله استعارة لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب[1] ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا

---

(١) سمَّى تعالى إمهاله لهم، واستدراجه لهم بأنواع النعم مكراً، لأنه في صورة من يمكر بصاحبه، ليوقعه في المهلكة، كما قال سبحانه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾ فهذا الفعل بالنسبة لله كمال، وهو على الكفار والفجار وبال.

بالكفر وترك النظر والاعتبار، وأضاعوا فطرة الله، التي فطر الناس عليها، قال بعض العلماء: إن الأمن من مكر الله كفرٌ، ومثله اليأسُ من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[1] وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن، اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس، اعتقاد عدم القدرة على الرحمة، فذلك مما لا ريب في أنه كفر، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون، وعدم مبالاة بالله تعالى، فذلك كبيرة، وهو الأظهر، والله أعلم.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أولم يتبيَّن ويتضح ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي يخلفون من خلا قبلهم، ويرثون ديارهم بعد هلاكهم، والمراد بهم أهل مكة ومن حولها ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أي من بعد إهلاك أهلها ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بجزاء ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم؟ ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا نصحاً، نطبع على قلب من لم نرد منه الإيمان، حتى لا يتعظ بأحوال من قبله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمعون سماع تفهم، الوعظ والنصيحة، وأخبار الأمم المهلكة، فضلاً عن التدبر فيها.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يعني القرى المارَّ ذكرهم، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وأضرابهم ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ ﴾ أي نقصُّ عليك بعض أخبارها، من أنباء الماضين، لتتبيَّن العِبَر، وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين من المكذبين، مما فيه عظة وتذكير ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي ولقد جاءتهم رسلهم الكرام، بالمعجزات الواضحات، والحجج القاطعات، الدالة على صحة رسالتهم ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، ولجُّوا في كفرهم وعنادهم، لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعده، فحالهم واحد في العتوّ والضلال. والغرضُ بيان أنهم استمروا على التكذيب، من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على الكفر والاستهزاء، لا يَرْعوون ولا يتوبون، مع تكرر المواعظ، وتتابع الآيات ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي ومثل ذلك الختم الشديد المحكم، على قلوب أولئك الضالين، نطبع على قلوب الكافرين المعاندين، فلا تكاد تؤثر فيهم النُّذُر والآيات.. وفي الآية تحذير للسامعين من كفار مكة الذين كذَّبوا سيد المرسلين، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من الطغاة المفسدين.

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ ﴾ أي وما وجدنا لأكثر الخلق من وفاءٍ للعهد، بل إن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم، من الإيمان وتقوى الرحمٰن، بعد إنزال الآيات، ونصب الحجج، كما كانوا إذا وقعوا في ضُرّ وكرب، عاهدوا الله بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ...﴾[1].

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ أي وما وجدنا أكثرهم إلاَّ عُصاة فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال لأمر الله.

قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه عليهم، هو ما فطرهم عليه،

---

(١) سورة يونس، آية: ٢٣.

وأخذه عليهم وهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكهم، فخالفوه وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل ولا حجة من عقلٍ ولا شرع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم، رسولنا «موسى بن عمران» بالمعجزات الباهرات، والحجج الساطعات، وهي الآيات التسع الآتي ذكرها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي أرسلناه إلى ملك مصر « فرعون» وأشراف قومه ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعدواناً، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه، فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر، فقيل ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا بها. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؟ أي فانظر أيها السامع ماذا آل إليه أمر المفسدين الظالمين؟ كيف أغرقناهم أجمعين، فلم نبق منهم أحداً! ووضع ﴿المُفسِدِينَ﴾ موضع ضميرهم، للإيذان بأن الظلم يستلزم الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أُجمل ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ﴾ أي إليكم، كما يشعر به ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي مالك أمركم.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي جدير بي، وحقٌّ عليَّ أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وصدق!! يعني أني رسولٌ، والرسول لا

يقول على الله إلاَّ الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يكن هذا القول منه عليه السلام، إثْرَ ما ذكر ههنا، بل بعدما جرى بينهما من المحاورة، المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَامُوسَى﴾؟ وقوله: ﴿ومَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ وقد طوى ههنا ذكره للإيجاز ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي فخلِّ بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة.

﴿قَالَ﴾ فرعون له ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِئَايَةٍ﴾ من عند من أرسلك، كما تدَّعيه ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقُك في دعواك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق، يقتضي إظهار الآية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي رماها من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ إذا للمفاجأة أي ففاجأ أن صارت حية ضخمة طويلة، والثعبانُ هو الذَّكرُ العظيمُ من الحيَّات، وقال آخرون: إنه الحية مطلقاً، وإيثار الجملة الاسمية، للدلالة على سرعة الانقلاب، قال هنا ﴿ثعبان﴾ وفي آية أخرى وصفها بأنها ﴿جان﴾ والجانُّ الحيةُ الصغيرةُ، والجمعُ بين هذين، بأنها كانت في عظم الجثة كالثعبان، وفي خفة الحركة كالجانّ، وقيل: انقلبت جاناً ثم أصبحت ثعباناً ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أمره، لا يُشك في كونه ثعباناً، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء، عن دجل السحرة.

رُوي أن موسى عليه السلام، لما ألقى العصا، صارت حية عظيمة، فاغرةً فاها، وتوجهت نحو فرعون، فوثب عن سريره هارباً وأحدث، وصاح يا موسى أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها، وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها فعادت عصا، والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته، إذ لو كان تخييلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن

لقوله ﴿مُّبِينٌ﴾ معنى، وما حدث إنما كان بفعل الله، ولهذا كانت معجزة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أخرجها من جيبه لقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أو من تحت إبطه، لقوله سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ والجَمعُ بينهما ممكن، لأن الجيب فتحة الصدر ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، فقد كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام آدم ـ أي أسمر ـ شديد السمرة، فكان إذا أخرجها ظهرت مضيئة كأنها فلقة قمر.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أصحاب مشورته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في علم السحر، وماهرٌ فيه، قالوه تصديقاً لفرعون، لأن هذا القول بعينه هو قولُ فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ هذا من كلام فرعون، أيَّ تشيرون عليَّ في أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ كأنه اتفقت آراؤهم عليه، فأشاروا على فرعون بذلك، والإرجاءُ: التأخيرُ، أي أخِّره وأخاه، حتى ترىٰ رأيك فيهما، وتتدبر شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرسل رجالاً يحشرون، أي يجمعون إليك السحرة، من جميع مدائن مصر، فإن غلبهم موسى صدَّقناه، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر، والمدائن جمع مدينة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهرٍ في السحر، توهَّموا أنهم بالتأخير والتدبير، يغيِّرون شيئاً من التقدير، ولم يعلموا أن الحق غالب.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم يُجمِّعهم من البلدان قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال، ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال، واختلف في عددهم، فعن كعب أنهم اثنا عشر ألفاً، وعن ابن إسحق أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألف ساحر[1] ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي السحرة واثقين بغلبتهم ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي أجرة وعوضاً وجزاء ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ والمقصود من الإخبار إيجاب الأجر واشتراطه، كأنهم قالوا بشرط أن تجعل لنا أجراً كبيراً إن غلبناه.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً كما تحبون ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين عندي، وفي ذلك من الترغيب والتحريض ما لا يخفى.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما تلقي أولاً ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيَّروه مراعاةً للأدب، فكان ذلك سبب إيمانهم، وصاروا من المقربين عند الله، لا عند فرعون[2].

---

(١) ليس في هذه الأقوال سند يوثق به، ولكنهم كانوا جمعاً كبيراً، جاؤوا من أقصى البلاد من مصر لنصرة فرعون، والله أعلم بعددهم!!.

(٢) هذا القول لبعض المفسرين ذكره الزمخشري في الكشاف وغيره، والأظهر ـ والله أعلم ـ أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس، واليقين بالغلبة، وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول الواثق من نفسه: هل أبدأ أنا أولاً أم تبدأ أنت؟.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى وثوقاً بشأنه ﴿ أَلْقُوا۟ ﴾ أنتم ما تلقون أولاً، وثق نبي الله موسى بالحق والغلبة فأعطاهم التقدم، وذلك ليظهر الله أمر نبوته ويقوي يقينه ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ ﴾ أي فلمَّا ألقوا حبالهم وعصيَّهم، وكان مع كل واحد منهم حبل وعصى ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بأن خيَّلوا إليها ما لا حقيقة له، ولذا لم يقل سبحانه «سحروا الناس» فالآية على حدِّ قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[1] وهذا هو الفرق بين المعجزة، والسحر، لأن السحر قلب الأعين عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزة قلب ذلك الشيء حقيقة، كقلب العصا إلى ثعبان، وإخراج الناقة من الحجر الأصم ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيّلوها حياتٍ تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم يهابه من رآه، يروى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، وكانوا قد طلوا تلك الحبال بالزئبق ولوَّنوها، وجعلوا داخل العصيِّ زئبقاً أيضاً، ثم ألقوها على الأرض، فلما أثَّر حرُّ الشمس فيها، تحركت والتوى بعضها على بعض، فإذا هي تتحرك تشبه الحيات، وقد ملأت الوادي، ففزع الناس، والسحرُ عند أهل السنة أقسام: منه ما هو تخييل كما هنا في عمل السحرة، ومنه ما له حقيقة وتأثير كما قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[2] وأجمع المسلمون على أنه ليس من السحر، ما يفعله الله تعالى تأييداً لرسله، كقلب العصا إلى ثعبان، وإحياء الموتى، وإنطاق الحجر أو الشجر، وأمثال ذلك من معجزات الرسل الكرام.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك لترى العجب العجاب ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي فألقاها فإذا هي تبتلع وتزدرد ما صوّروه من الإفك والكذب.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبهم، وسعي فرعون وشيعته.

﴿ فَغُلِبُوا۟ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أي جعلهم ما شاهدوه خارين على وجوههم، تنبيهاً على أن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود، بحيث لم يبق لهم تمالك، فكأن أحداً دفعهم وألقاهم، يروى أن الاجتماع كان بالاسكندرية، وأن الحية فتحت فاها فابتعلت ما صنعوا واحداً بعد واحد، وقصدت الناس ففزعوا، ووقع الزحام، ثم أخذها موسى فعادت في يده عصا كما كانت، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه معجزة، وليس من السحر، فعند ذلك خرُّوا سجداً لله رب العالمين.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ يعني أنهم خروا ساجدين معلنين إيمانهم قائلين ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي آمنا بالله الواحد الأحد، مالك الملك رب العالمين.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ بدل مما قبل، أبدلوا لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون، وأكدوا ذلك بذكر هارون مع موسى، قال قتادة: كانوا أول النهار سَحَرة كَفَرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي قال فرعون موبخاً ومتوعداً للسحرة: آمنتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن آمركم أنا بذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما صنعتموه ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ لحيلة احتلتموها أنتم وموسى، وهذا تمويه من فرعون على القبط، يريهم أنهم ما غُلبوا، وإنما تآمروا عليه ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي القبط، وتخلص لكم ولبني إسرائيل، خاف فرعون أن يصير إيمان السحرة، حجةً عند قومه، فألقى هاتين الشبهتين على أسماع عوام القبط، تثبيتاً لهم على ما هم عليه، وتهييجاً لعداوتهم لموسى عليه السلام، ثم عقَّب بالوعيد ليريهم أن له قوة، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيد ساقه بالإجمال للتهويل، ثم عقَّبه بالتفصيل فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي من كل جانب عضواً كاليد من جانب والرجل من آخر[1] ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، والتصليبُ: مأخوذ من الصلب، وهو الشدُّ والربط بعد القتل على شجرة أو عمود. أياماً أو شهوراً، ليكون زجراً للآخرين.

﴿قَالُوٓاْ﴾ ثابتين على الإيمان ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إننا جميعاً إلى ربنا راجعون، فيحكم بيننا وبينك.

إلـى دَيَّـان يـوم الـدِّيـنِ نَمضِـي   وعنـــدَ الله تَجْتَمِـــعُ الخُصُـــومُ

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تُنكر منا؟ وما تعيب علينا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وذلك أصلُ المفاخر، وأعظم المحاسن، ليس نتخلى عنه طلباً لمرضاتك، ثم أعرضوا عن مخاطبة فرعون وفزعوا إلى الله عز وجل فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب

---

(١) قال الطبري ١٣/ ٣٤: ومعنى ﴿من خلاف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.

فرعون لنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، روي أن فرعون بعدما رأى ذلك خاف من موسى أشد الخوف، فلذلك لم يتعرض له بسوء.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ مخاطبين له بعدما شاهدوا ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾ أي أتتركه ﴿وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر، والمراد بالإفساد، دعوة الناس إلى دين موسى والخروج على فرعون، روي عن ابن عباس قال: لمَّا آمنت السحرة، اتَّبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي يتركك ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك، قيل كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1] ﴿قَالَ﴾ مجيباً لهم ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليعلم أنَّا على ما نحن عليه من القهر والغلبة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي غالبون كما كنا، لم يتغير حالنا، وهم مقهورون تحت أيدينا، ولم يذكر حقيقة الحال، وهو كونه خائفاً من موسى.

---

(١) ذكر المفسرون أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة تُعبد، من بقرٍ وأصنام وغير ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وكان هو يعبد البقر، وروي عن ابن عباس أن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُد، وكان يقرأ ﴿وإلاهَتَكَ﴾ أي يترك عبادتك والتذلل لك.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ تسليةً لهم، وعدةً بحسن العاقبة، حين سمعوا قول فرعون، وتضجّروا منه، تسكيناً لهم ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، وعلى ما نالكم من المكاره ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ ﴾ أي الأرض كلها لله ﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني أنه ليس الأمر كما قال فرعون، فإن القهر والغلبة لمن صبر، واستعان بالله، والعاقبةُ للمتقين أي الظفر والنَّصْرُ لمن اتقى الله تعالى.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أُوذِينَا ﴾ من جهة فرعون ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ ﴾ أي رسولاً، يعنون به ما توعَّدهم فرعون به من إعادة قتل الأولاد، وسائر ما يفعل بهم، وذلك اشتكاء من فرعون لا أنهم كرهوا مجيئه، لأن ذلك كفر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لما رأى شدَّة جزعهم، مسلِّياً لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل، وتوعَّدكم بما توعَّد ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ ﴾ أي يجعلكم خلفاء ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أرضهم بعد هلاكهم ﴿ فَيَنظُرَ ﴾ أي يرى ويعلم ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإصلاح والإفساد، ليجازيكم على حسب ما يوجبه عملكم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك، بل رتب أسباب هلاكهم من حال إلى حال، إلى أن حلَّ بهم عذاب الاستئصال، والمرادُ بآل فرعون: أتباعُه ﴿ بِٱلسِّنِينَ ﴾ جمع سَنَة، والمراد به عامُ القحط والجدب، والمعنى: ولقد أخذنا قوم فرعون بالجدب والقحط، سنةً بعد سنة ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

بإصابة العاهات زيادة في القحط ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي ينتبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا وينزجروا، عمَّا هم عليه من العتوّ، والظلم والفساد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا في فعل الخير، لأن أحوال الشدة ترقّق القلوب، وترغّب فيما عند الله، كذلك الشدائد والمصائب موجبات للانتباه والاعتبار، لكنْ لأهل السعادة وأولي الأبصار، فأما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة، ولا ترقّقهم شدَّةُ النقمة.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الحسنة: أي السَّعة والخِصْبُ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي لأجلنا، ونحن مستحقوها، ولم يَرَوْا ذلك من فضل الله تعالى عليهم ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء وما يكرهون في أنفسهم ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءموا بهم، ويقولوا ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وهذا شاهد بكمال قساوة قلوبهم، والتطيُّرُ: التشاؤم، والاسم منه طِيَرة، واشتقاقه من الطير، والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإن خرج أحدهم لمقصده، ورأى الطير من ناحية يمينه، تيمّنَ به، ويُسمى سانحاً، ويسير إلى مقصده، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به، ويسميه بارحاً، فيرجع إلى بيته ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ تصديره بكلمة التنبيه، لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي سبب خيرهم وشرهم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى أي في حكمه ومشيئته، المتضمنة للحِكَم، والمصالح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم، للإشعار بأن بعضهم يعلم، ولكن لا يعمل بمقتضى علمه، عناداً واستكباراً.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي قوم فرعون بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا، والسنين، ونقص الثمرات ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ تحضره لدينا وتأتينا به ﴿ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ سمَّوها آية لتسمية موسى عليه السلام، لا لاعتقادهم، أو قصدوا بذلك الاستهزاء، ولذلك قالوا ﴿ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ أي لتسحر بها أعيننا، ولتصرفنا عما نحن عليه من الدين، وهذا يدل على كمال الطغيان والجبروت ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدّقين لك، ومؤمنين بنبوّتك أصلاً، وكان موسى عليه السلام حديداً، ومستجاب الدعوة، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا جاء العقاب سريعاً، قال تعالى مبيناً ما أصابهم من البلاء.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ عقوبةً لجرائمهم، والطُّوفانُ: اسم لكل شيءٍ يحيط بالجهات ويعمُّ، كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء، وجاء تفسيره بذلك، عن ابن عباس، روي أن الطوفان دام سبعة أيام، فقالوا لموسى: ادع لنا يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، فنبت من العشب ما لم يعهد مثلُه، قالوا: هذا لنا نعمة، فلا والله لا نؤمن لك يا موسى، فنقضوا العهد، فبعث الله تعالى عليهم الجراد ﴿ وَٱلْجَرَادَ ﴾ وهو المعروف، سُمي جراداً لجرده ما على الأرض، وهو جند من جنود الله تعالى، يسلطه على من يشاء من عباده، روي عن سلمان الفارسي قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الجراد، فقال: أكثرُ جنودِ الله تعالى، لا آكلُه، ولا أحرِّمه»[1] روي أن الجراد أكلت، زروعهم وثمارهم، وعشبهم، فعجُّوا وضجُّوا، وقالوا لموسى: ادع لنا ربك لئن كشف الله عنا هذا لنؤمننَّ لك وأعطوه عهداً، فدعا ربه فكشف الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يفوا ما عاهدوا عليه، ثم بعث الله تعالى عليهم القُمَّل ﴿ وَٱلْقُمَّلَ ﴾ بضم القاف، وتشديد الميم: هو السُّوس أو

---

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة رقم ٣٨١٣، وابن ماجه في أبواب الصيد رقم ٣٢٥٨.

القملُ نفسه الذي يلحق البدن، والبراغيث، كذلك قيل: ولم يُصابوا ببلاء، كان أشدَّ عليهم من القمَّل، أخذ أشعارهم، ولزم جلودهم، ومنعهم النوم والقرار، فصرخوا بموسى: إنا نتوب فادع لنا ربك!! فدعا فرفع الله عنهم ذلك البلاء، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الضفادع، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ جمع ضِفْدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه، وجعلت الضفادع تقذف أنفسها بالقدور وهي تغلي، فقالوا: ادع لنا ربك في كشف هذا، فدعا فكشف عنهم، فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم، فبعث الله عليهم الدم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دماً، فما يستقون من بئرٍ ولا نهر، إلا وجدوه دماً ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي علامات ظاهرات، فيها عِبَرٌ وعظات، تدل على انتقام الله منهم. وكانت الآيات تأتي على فترات، تمكث فيهم من السبت إلى السبت، ثم ترتفع عنهم شهراً كما رُوي عن ابن جريج، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان، وكانوا مصرِّين على الإجرام، فلم تنفعهم تلك الزواجر والقوارع، وهذا يشير إلى طغيانهم وعتوهم، وإغراقهم في الضلال والطغيان.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي وحين نزل بهم ذلك العذاب المذكور، المفصَّل في الآيات المتقدمة ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء، بحق ما أكرمك به من النبوة، والمراد استعطافه ليدعو لهم بكشف البلاء، ثم قالوا مؤكدين الوعد ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أقسمنا لك بعهد الله، لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن ولنرسلن معك أتباعك من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي هم واصلون إليه ولا بد، وهو وقت الغرق، والمراد أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لمَّا أي فلما كشفنا

عنهم ذلك البلاء، فاجأوا النكث من غير تأمل، ونكثُ العهد: نقضُه، وأصل النكث فلُّ طاقات الصوف المغزول، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي فأردنا أن ننتقم منهم، لِمَا أسلفوا من المعاصي والجرائم ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي البحر العميق الذي لا يدرك قعره ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ تعليل للإغراق، يعني أن سبب الإغراق هو التكذيب بالآيات، والإعراض عنها، وعدم الإذعان والقبول لدعوة موسى عليه السلام ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ أي لا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً، فلذلك كان الهلاك لهم بالإغراق.

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بالاستعباد، وذبح الأبناء، واستخدام النساء، وهم بنو إسرائيل، ذكروا بهذا العنوان، إظهاراً لكمال لطفه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة، إلى أوج العزة والسيادة، وفي الآية إشارة، إلى أن فضل الله سبحانه عند القلوب المنكسرة ﴿ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ يعني أرض الشام التي بارك الله فيها، والأرض المقدسة التي طلب موسى من فرعون أن يرسلهم معه ليذهب بهم إليها ﴿ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء عليهم السلام، والأحاديث في فضل الشام كثيرة، منها قوله ﷺ: «طوبى للشام فقيل له ولم قال: إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»[1] ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٩٤٩ ولفظه عن زيد بن ثابت أن رسول =

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدَّراً من إهلاك عدوهم، وتوريثهم الأرض، والحسنى تأنيث الأحسن، وصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يستحسنونه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد، التي كابدوها من جهة فرعون وقومه، وحسبك بهذا تنويهاً على فضيلة الصبر، وإشارة إلى أن من قابل البلاء بالجَزَعَ، وَكَلَه الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر، ضمن الله تعالى له الفرج ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي خرَّبنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون، في أرض مصر، من العمارات والقصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله عزَّ وجل من استعباد فرعون، ومنَّ عليهم من النعم العظام، الموجبة للشكر، تسليةً لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنهم جَرَوْا معه على دأب أسلافهم، مع موسى عليه السلام، وجَاوَزَ بمعنى: جاز، أي قطعنا البحر بهم، رُوي أنَّ موسى عليه السلام عَبَر بهم يوم عاشوراء، فصامُوا شكراً لله تعالى ﴿فَأَتَوْا﴾ أي مرُّوا بعد المجاوزة ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويسجدون لها، ويعبدونها من دون

= الله ﷺ قال: «طوبى للشام، فقلت: لمَ ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها».

الله ﴿قَالُوا﴾ أي قال بنو ﴿الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي﴾ إسرائيل عندما شاهدوا ذلك ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعبدونها، وهذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل، فلذلك ردَّ موسى عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم هذا، إثر ما شاهدوا من الآيات الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكَّده بإنَّ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع!!.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مكسَّر، مدمَّر، وهالك ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من الدين، يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي، ويجعلها فتاتاً ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحل بالكلية ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي مااستمروا على عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله تعالى، لأنه كفر محض، وإنما بالغ فيه بالمؤكدات، تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أأطلب لكم معبوداً غير الله؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً؟ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم، حيث قابلوا تخصيص الله إياهم عن أمثالهم، بأن قصدوا أن يشركوا به أخسَّ شيء من مخلوقاته، تباً لهم على ما يطلبون.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تذكيرٌ لهم من جهته تعالى، بنعمة الإنجاء من فرعون الطاغية الجبار، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع التنبيهُ على أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره؟ حتى تقولوا: (اجعل لنا إلهاً)؟.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أي وعدناه لإعطاء التوراة، والمناجاة، روي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر، أن يأتيهم بكتاب من الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلمَّا هلك فرعون، سأل موسى ربه، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ والعرب في أغلب تواريخها تذكر الليالي، لأن الليل هو الأصل، والنهار عارض، ولأن الليل غرر الشهور، فأمره أن يصوم ثلاثين، وهو شهر ذي القعدة، ويروى عن ابن عباس يرفعه، لمَّا أتى موسى ربَّه عزَّ وجلَّ، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين، كره أن يكلِّم ربَّه سبحانه وريحُ فمه ريحُ فم الصائم، فتناول من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرتَ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: أي ربِّ كرهتُ أن أكلِّمكَ إلاَّ وفمي طيّبُ الرائحة، قال: أَوَ ما علمتَ يا موسى أنَّ ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ وهذه العشرة من ذي الحجة، وإنزال التوراة كان في العشر، وكلَّمه ربه فيها ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تأكيد وإيضاح، أي تمت المدة أربعين ليلة على وجه التمام والكمال ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين توجَّه إلى المناجاة، حسبما أمر به ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ أي كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح في أمورهم،

وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك سبيل الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

والمقصود من هذا الأمر التأكيد، لأن هارون لم يكن ممن يتَّبع سبيل المفسدين، وذلك أن موسى كان يشاهد كثرة خلاف قومه حالاً بعد حال، فأوصاه في أمرهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه له، أي لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة كما يكلّم الملائكة، وسماعُ كلامه تعالى ليس من جنس سماع كلام البشر، ولا يشبه كلام المخلوقين، وقد كان هذا خصوصية لموسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ ولمَّا سمع موسى كلامه تعالى، طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك، وهو محذوف لأنه معلوم، ولم يصرح به تأدباً، أي مكني من رؤيتك، فأنظر إليك وأراك ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي، لن تراني بعينٍ فانية ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق الرؤية، والمراد من الجبل طور سيناء ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ ولم يفتّته التجلّي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ إذا تجليتُ لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر له، على الوجه اللائق بجنابه تعالى ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي مدكوكاً متفتتاً، والدكُّ: الدقُّ والانسحاق والتفتُّت، فأصبح الجبل متفتتاً تذروه الرياح. أخرج أحمد والترمذي والحاكم من طرق عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكا﴾ الخ قال: هكذا ـ وأشار بأصبعيه ووضع طرف إبهامه على

أنملة الخنصر ـ فساخ الجبلُ، وخرَّ موسى صعقاً[1]، وهذا من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم، وهو أسلم وأحكم ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ أي سقط من هول ما رآه ﴿صَعِقًا﴾ مغشيّاً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه، بعود الفهم والحسِّ، والإفاقة: رجوعُ العقل والفهم إلى الإنسان، بعد ذهابهما بسبب من الأسباب ﴿قَالَ﴾ موسى تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنه لا يراك أحد في هذه النشأة، واستدل أهل السنة المجوّزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك، وخلاصة الكلام في ذلك، أن أهل السنة قالوا: يدل على إمكان الرؤية من وجهين: **الأول**: أن موسى سألها، ولو كانت مستحيلة فالعاقل ـ فضلاً عن النبي ـ لا يسأل المحال. **والثاني**: أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل، وهو ممكن في نفسه، وما عُلِّق على الممكن ممكن، ولقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع، والخوارج، والمعتزلة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) تكون للتأبيد ولا حجة لهم في ذلك، **قال الواحدي**: كون كلمة (لن) مفيدة لتأبيد النفي دعوى باطلة، ويدل على فساده قوله تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ مع أنهم يتمنونه يوم القيامة، ولأنه لو كان للتأبيد، لكان ذكر الأبد تكراراً.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

---

(١) سنن الترمذي كتاب التفسير ٥/٢٤٨ ومعنى: ساخ الجبلُ أي غاص في الأرض وغاب عنها. وروى الطبري ١٣/٩٧ عن ابن عباس قال: «ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار تراباً، وخرَّ موسى مغشياً عليه».

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي قال الله عزَّ وجل تسليةً له وتأنيساً: إن منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظام ما يكفيك، فقد اصطفيتك أي اخترتك وخصصتك على الناس الموجودين في زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي بما منحتك من الرسالة الإلهية، وتكليمي لك بدون واسطة، وإنما جمع الرسالة ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ لأن ما جاء به من الشريعة ضروب وأنواع، من التذكير والإرشاد، والحلال والحرام، وبيان أنواع المعاملات بين البشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلهذا جمعت الرسالات ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي فخذ ما وهبتك من شرف النبوة والتكليم، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم العظام.

ذكَّره تعالى بنعمه على جهة الإخبار، وقنَّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنّه يقول له: لا تتعداها إلى غيرها، ولا تطلب ما لا طاقة لك به!!.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وكتبنا لموسى في الألواح العشر ـ وكانت من زبرجد على ما قال ابن عباس ـ كلَّ شيء ينفع، مما كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم، وكل ما فيه مصلحة لهم ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي إرشاداً لهم ليتعظوا بها وينزجروا، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام. وتقديم الموعظة لأنها الأساس في صلاح الإنسان، فالاهتمام بها أشد، والعناية بها أتمُّ، ألا ترى أن أكثر الفواصل في الكتاب العزيز، جاء على هذا النمط، نحو قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ واستمع إلى سورة الرحمن، وقد تكرَّر فيها قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ ثلاثين مرة، وذلك ليألف السامع بها اتعاظاً وادكاراً، ويجد فيها تنبيهاً واعتباراً!!.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ على إضمار القول أي وقلنا له خذ ما في الألواح بجدٍّ وعزم، ونشاط واجتهاد، شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي وأمرْ بني إسرائيل بالحْث على اختيار الأفضل، كالأخذ بالعزائم دون

الرُّخَص، فالعفو أفضل من القصاص، والصبرُ أفضل من الانتصار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1] **قال ابن عباس**: أُمر موسى أن يأخذها بأشدَّ مما أُمر بها قومه. ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ تلوينٌ للخطاب، وتوجيه إلى قومه، حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به، والرؤية هنا رؤية عينية تتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاسقين، والمراد بدار الفاسقين بلاد مصر، التي كانت تحت سلطان فرعون وزبانيته، والمعنى: سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم، ودمَّرهم الله لفسقهم وفجورهم، لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية من أهلها، موجب للاعتبار والانزجار.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ أي سأمنع وأصدُّ عن فهم آياتي، والتفكر بما فيها من العظات والعبر ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الذين يعدُّون أنفسهم كبراء، ويرون لهم على الخلق مزية، فلا ينتفعون بآيات الله التنزيلية والتكوينية[2] ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق، والتكبر بالحق لله وحده، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن

---

(١) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٢) الصرف عن فهم معاني الآيات جائز، لأنه إنما حدث بسوء اختيارهم، والممنوع إنما هو الجبر كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فمن عمي عن طريق الإيمان أعماه الله بسوء اختياره.

نازعني في واحد منهما قذفته في النار»[1] وأما التكبر على المتكبر فهو بحق، لما في الحكمة المشهورة: «التكبُّرُ على المتكبِّرِ صَدَقةٌ» ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية، أو كل معجزة ربانية ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لتكبرهم وعنادهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ أي طريق الهدى والسَّداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي لا يتوجهون إلى الحق، ولا يسلكون سبيله أصلاً، لاستيلاء الهوى عليهم، وسبيل الرشد: طريقُ الهدى والصلاح ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ أي طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً، لموافقته لأهوائهم الباطلة، وشهواتهم الحيوانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من تكبرهم وعدم إيمانهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، وما وعدهم الله به من الحساب والجزاء ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت فصارت كأن لم تكن، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، ونحو ذلك ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في اللباس رقم ٤٠٩٠ ورواه مسلم في كتاب البر والصلة بلفظ «العزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذّبته» رقم ٢٦٢٠.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة ربه ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ التي استعاروها من القبط، حين همُّوا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم، وملكوها بعد هلاكهم. المتّخذُ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم، وكان السامري رجلاً صائغاً، ورجلاً مطاعاً في بني إسرائيل، فصاغ لهم ﴿ عِجْلًا ﴾ وهو ولد البقرة خاصة، والمفعول الثاني محذوف أي إلٰهاً ﴿ جَسَدًا ﴾ أي بدناً ذا لحم ودم، خالياً من الروح ﴿ لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ هو صوت البقر خاصة، كالنُباح للكلب، والزئير للأسد، والنهيق للحمار، وقد اتخذه السامري لهم من الحلي، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوارٌ أي صوت كصوت البقر، وقيل: إنَّ السامري صاغه مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب، وجعله في مهب الريح، فكانت الريحُ تدخل في تلك الأنابيب، فيسمع لها صوت يشبه خوار العجل، وكانوا كلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ تقريع على فرط ضلالتهم، وإخلالهم بالنظر، والمعنى: ألم ير الذين اتخذوا إلٰهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كآحاد البشر، حتى عبدوه ﴿ ٱتَّخَذُوهُ ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلٰهاً، وأقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ أي إن دأبهم وعادتهم الظلم، فليس ببدعٍ منهم هذا المنكر العظيم.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعضُّ يده غماً، وتقول العرب لكل نادم: سُقط في يده، لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعضَّ يده، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[1] ﴿ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ ﴾ باتخاذ العجل، أي تبينوا

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٧.

وتيقَّنوا، حتى كأنهم رأوه بأعينهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفّرة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن خطيئاتنا، واللام في ﴿لَئِن﴾ موطئة للقسم، أي والله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، وما حكي عنهم من الندامة والأسى إنما كان بعدما رجع موسى عليه السلام، كما تنطق به آية طه، لكنْ أُريد بتقديمه عليه، ليتصل ما قالوه بما فعلوه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ شروع في بيان ما جرى من موسى بعد رجوعه من الميقات ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الأسِفُ: شديدُ الغضب وقيل الحزينُ، أسِف أسفاً: حَزِنَ وتلهف فهو أسفٌ، أي ولمَّا عاد من الطور إلى قومه، غضوباً وحزيناً، لأن الله تعالى قد أخبره بما فعلوا، قال الواحدي: إذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبتَ، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنتَ، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل، حزيناً لأن الله تعالى فتنهم ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أي بئس ما فعلتم بعدي، حيث عبدتم العجل، والخطابُ لمن عبد العجل والمخصوص بالذمّ محذوفٌ، تقديره: بئس خلافةً خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى ﴿مِن بَعْدِي﴾ أي من بعد انطلاقي وأثناء غيبتي عنكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار نبيكم موسى؟ روي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ وإن موسى قد مات!! ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي طرحها من شدة الغضب، لفرط حميته

الدينية، وشدة غضبه لله تعالى، ولم يتمالك أو يتماسك نفسه وهم يطوفون حول العجل ويسجدون. رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله تعالى موسى، ليس المُعَايِنُ كالمُخْبَر، أخبره ربُّه تبارك وتعالى أنَّ قومه فُتنوا بعده، فلم يُلق الألواح، فلمَّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسَّر منها ما تكسر»[1]. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعر رأس هٰرون، لأنه هو الذي يؤخذ ويمسك عادة، ولا ينافي أخذه بلحيته كما وقع في سورة طه فقد جمع بينهما ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصَّر في كفّهم، ولم يتمالك نفسه لشدة غضبه، وهٰرون كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان هيِّناً ليناً، ولم يقصد موسى بهذا إهانته، بل اللوم على التقصير ﴿قَالَ﴾ أي هٰرون مخاطباً لموسى ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرقّقه عليه، وكانا من أب وأم، وفيه استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي استذلوني وقهروني، ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ أي قاربوا أو همُّوا أن يقتلوني حين نهيتهم عن ذلك، قاله إزاحةً لتوهم التقصير ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، والمراد من الأعداء القوم المذكورون ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة، أو بنسبة التقصير.

﴿قَالَ﴾ أي فلما اتضح لموسى عذرُ أخيه قال ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما فعلت بأخي قبل جليَّة الحال ﴿وَلِأَخِى﴾ إن فرط منه تقصير، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضيةً له، ودفعاً للشماتة عنه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأنت أرحم بنا منَّا على أنفسنا، فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة.

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأحمد في المسند ١/ ٢١٥.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً وعبدوه، واستمروا على عبادته كالسامري وأشياعه ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لما أن جريمتهم أعظم الجرائم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مالكهم ﴿ وَذِلَّةٌ ﴾ كبيرة ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فإن قيل: إنه تعالى بيَّن أن القوم ندموا، بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ والندمُ توبةٌ، فهل قَبِلَ الله توبتهم؟ والجواب وَرُدَّ بعده قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العجلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ﴾ لأنهم ما ندموا وإنما خافوا من العقاب، وكان من تمام توبة القوم الأمر لهم بقتل أنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾[1] أي ليقتل البريءُ المجرم. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ أي إن كل مفتر في دين الله، فجزاؤه غضب الله، والذلةُ في الدنيا، عن مالك بن أنس قال: ما من مبتدع إلا وجد فوق رأسه الذلة، وقرأ هذه الآية.

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد عملها ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، ولم يصرُّوا على ما فعلوا، بل لزموا فعل الخيرات وعمل الصالحات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة، المقرونة بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية، وهذا من أعظم البشارة للمذنبين التائبين.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٤.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ شروع في بقية الحكاية، وفي هذا النظم الكريم، من البلاغة والمبالغة ما فيه، فقد شبَّه الغضب بشخص يُرعد ويزمجر، ويريد أن يبطش بخصمه، وصوتُه يرتفع يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة؛ أي ولمَّا سكن غضبه، باعتذار أخيه، وتوبة القوم ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها وكُتب ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق عظيم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أي للخائفين من ربهم الذين يخشون عقابه.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ أي اختار من قومه، يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ الميقات الذي وقتناه، بعدما وقع من قومه ما وقع من عبادة العجل. روي أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه تعالى، ويسألونه التوبة على من عبد منهم العجل، فاختار منهم سبعين رجلاً، وأمرهم أن يتطهروا ويصوموا، ويطهّروا ثيابهم، ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه، فلما دنوا إلى الجبل غشيه الغمام، فأقبلوا إليه فدخل موسى بهم الغمام، وخرُّوا سجداً،

فسمعوا الأمر والنهي، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[1] أي عياناً، وهذا من غطرستهم وطغيانهم ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الصاعقة حيث رجف بهم الجبل فصعقوا وماتوا، فلما رأى موسى ذلك أَسِفَ عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعَّب عليه، إذا لم يرجع بالقوم، فجعل يستعطف ربه ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل، إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم؟!.

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَّ﴾ أي لو شئت يا رب أهلكتهم وأهلكتني معهم، قبل أن أرى ما أرى، فإنَّا عبيدك وتحت قهرك، تفعل بنا ما تشاء!! وهذا محضُ استعطاف ورجاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل، بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون الجاهلون في قولهم: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾؟ ـ نعوذ بالله من خُبث اليهود ـ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا ابتلاؤك وامتحانك، تختبر عبادك بما تشاء بالسراء والضراء، و«إن» هنا نافية بمعنى «ما» والمراد بالفتنة الامتحانُ والاختبار، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بالشَرّ والخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي بالفتنة تضل من علمت منهم اختيارهم للضلالة، وتهدي بها من علمت منهم اختيار الهدى وطريق السلامة ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي أنت القائم بتدبير أمورنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا رب خير من صفح وستر.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية وحياة طيبة ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا أيضاً في الآخرة حسنة، وهي المثوبة الحسنى،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا وأنبنا إليك، من هادَ إذا رجع والمعنى: إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها، فبعيدٌ من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه وليس لأحد الاعتراض عليَّ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي شأنها أنها واسعة، تبلغ كل شيء، فما من مسلم ولا كافر، ولا مطيع ولا عاص، إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة سعة الرحمة بصيغة الماضي، إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي فسأثبتها وأعينها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الكفر والمعاصي، وفيه تعريض بالقوم، كأنه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصَّها بالذكر تشريفاً لها، ولأنها كانت أشق عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً مستمراً، من غير إخلال بشيء منها، وفيه تعريض بهم أيضاً، لأنهم كفروا بالآيات العظام التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي الذي أنبأ الخلق عن الله تعالى التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات، وضمَّ إلى ذلك اتباع النبي ﷺ وباعتقاد نبوته من حيث وجدوا

صفته في التوراة، والمراد بهم من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول ﷺ، فبيَّن تعالى أن هؤلاء لا يكتب لهم الرحمة، إلا إذا اتبعوا الرسول ﷺ ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو نسبة إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم ذلك، أو إلى أمه، كأنه على الحالة التي ولدته أمه، وهو بالنسبة إليه ﷺ صفة مدح، ووصفه بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه مع أميته إحدى معجزاته ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ باسمه ونعوته الشريفة؛ بحيث لا يشكُّون أنه هو، وأن شأنه ﷺ حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلاً ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي في كتبهم السماوية، روي عن عبد الله بن سلام قال: صفة الرسول الله ﷺ في التوراة: «يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكنْ يعفو ويصفحُ، ولن يقبضه الله تعالى، حتى يُقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولُوا: «لا إلهَ إلاَّ الله» ويفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمَّاً، وقُلوباً غُلْفاً»[1] وجاء من حديث سهل مولى خيثمة قال: «قرأت في الإنجيل نعتَ محمد ﷺ أنه لا قصير، ولا طويل، أبيض ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، لا يقبل الصَّدقة، ويركب الحمارَ والبعيرَ، وهو من ذرية إسماعيل، اسمه أحمد»[2] وجاء من خبر أخرجه البيهقي عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى أوحى في الزبور، يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي، اسمه أحمد[3]، فالرسول عليه الصلاة والسلام مذكور صفته في الكتب الإلهية، وعلى وجه الخصوص في التوراة والإنجيل، كما جاء في صحيح البخاري في صفة النبي الأمي في التوراة ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المعروفُ: ما استحسنه الشرع، وارتضته العقول

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٨٥ قريباً من هذا اللفظ، والرواية المذكورة للبيهقي والدارمي.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن سهل مولى خيثمة.

(٣) أخرجه البيهقي من رواية وهب بن منبه، وهو أثر موقوف.

السليمة، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، لقوله ﷺ «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[1] والمنكرُ: ما استقبحه الشرع ولم تقبله العقول السليمة، والمعنى: يأمرهم بكل ما فيه خير ومنفعة لهم، وينهاهم عن كل ما فيه أذى وضرر عليهم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ المراد بالطيبات الأمور الحلال التي يستطيبها الطبع، وبالخبائث: الأشياء المحرمة التي تستقذرها النفس، كالدم، والخنزير، والعقارب، والخنافس، والحيات، والوزغ، وسائر المستقذرات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإصْرُ: الثقل والمراد به التكاليف الشاقة الصعبة، والأغلال جمع غُلّ، وأصله الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، والأغلالُ: استعارةٌ عن الأثقال الشاقة التي تشبه الأغلال، والمعنى: يرفع عنهم الأثقال والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم، كقطع الجلد والثوب من أثر البول، ووجوب القصاص دون الدية في القتل، وترك الاشتغال يوم السبت، وقد روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، وجاءت الشريعة الإسلامية برفع جميع تلك الأثقال كما قال ﷺ: «بُعثت بالحنيفيَّة السهلة السمحة»[2] ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوه وآمنوا برسالته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي قاموا بنصرته على أعداء الدين، وناصروه على جميع من عاداه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي اتبعوا القرآن المجيد، والشرع الحنيف الذي جاءهم به من عند الله، شبَّه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوبُ تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الفاضلة، هم الفائزون بالرحمة الأبدية، الناجون من الشدائد والكربات يوم القيامة، ومعنى الفلاح: النجاح والفوز بالمحبوب.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمم حُسْن الأخلاق».

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق، لأن الخطاب عام لجميع الناس، أي قل يا رسول الله: إني رسول من عند الله بعثني الله إليكم جميعاً، فشرعي واضح، ورسالتي عامة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ روى الشيخان عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت ليَ الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»[1]. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لجميع الكائنات، مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي فصدقوا بالله وآياته، وصدّقوا برسوله، المبعوث إلى جميع خلقه، وذكر الرسول ﷺ بعنوان الرسالة، للمبالغة في إيجاب الامتثال، ووصفه بقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ لمدحه ولزيادة تقرير أمره، أي النبي الأمي، صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي بما أُنزل عليه وعلى سائر الرسل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التيمم ١/ ٣٦٩ ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ والنسائي ١/ ٢١٠.

عليهم السلام، من كتبه ووحيه، المصدّق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء، والتصريح بالإيمان بالله تعالى، للتنبيه على أن الإيمان به سبحانه لا يصح حتى يؤمن الإنسان بجميع كتب الله ورسله، وإلاَّ لم ينفع صاحبه شيئاً، والدين كلٌّ لا يتجزأ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي رجاءَ لاهتدائكم إلى المطلوب، وفي تعليقه بهما، إيذانٌ بأن من صدَّقه ولم يستمسك بالتزام أحكام شريعته، فهو بمعزل من الاهتداء، مستمر على الغي والضلالة.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبسين به، أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وَبِهِۦ﴾ أي وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم، والمراد بهم الثابتون على الإيمان، القائمون بالحق، من أهل زمانه، ذكَرَهم تعالى تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر، وتزاحم أهل الحق والباطل، أمر مستمر، فمن قوم موسى أناس مهتدون، وأناس ضالون، والكلام مسوقٌ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص الرحمة والتقوى، بمتَّبعي رسول الله ﷺ، من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي وصيَّرناهم قِطَعاً، متميزاً بعضهم من بعض أي قوم موسى ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي صيرناهم اثنتي عشرة قطعة، وكل سبط أمةٌ عظيمة، وكل واحدة كانت قبائل شتى، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وفرَّقهم كذلك ليرجع أمر كل قبيلة إلى رئيسهم، ليخفّ أمرهم على موسى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي وأوحينا إلى موسى حين استولى على قومه العطش في التيه، أن يضرب الحجرَ بعصاه فضربه، فانبجست أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط والقبائل، لئلا يقتتلوا على الماء ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل جماعة وكل قبيلة منهم عينهم الخاصة بهم، وهذه إحدى معجزات موسى عليه السلام، حيث تفجرت من الحجر الأصم، عيون الماء الدافق، كما نبع الماء من بين أصابع نبينا المصطفى ﷺ معجزة له ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ أي جعلنا الغمام يسترهم من حر الشمس وهم في الصحراء، ويقيهم من أذاها، ويسير معهم حيث ساروا ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناهم برزق هنيءٍ شهي، من عندنا تكرماً عليهم، وهو «المنُّ» شيء حلوٌ لذيذٌ ينزل على الشجر، فيجمعونه ويأكلونه، و«السلوى» وهو طير لذيذ اللحم، يسمى «طير السُّمَّاني» دون كدٍّ منهم ولا تعب، فطعامهم الحلوى ولحم الطير ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ على إضمار القول، أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ، الذي أكرمناكم به من فضلنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرَّضوها بالكفر والجحود، لعذاب الله عزَّ وجل، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول حين قلنا لأسلافهم: اسكنوا هذه البلدة المباركة «بيت المقدس» الذي باركنا

حوله بأنواع الخيرات والبركات ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي وكلوا من مطاعمها وخيراتها وثمارها من أي جهةٍ ومكانٍ شئتم، وكلوا مما تشتهون من خيراتها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا حين دخولكم بيت المقدس تائبين مستغفرين: اللهم حطَّ عنا ذنوبنا، وهي كلمة استغفار، كما يقول المؤمن: أستغفر الله العظيم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب بيت المقدس، حال كونكم ساجدين شكراً لله تعالى ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي نعفو عن جميع ذنوبكم، وسيئاتكم التي اقترفتموها، ونمحو عنكم الخطايا والآثام ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا عملهم، بطاعة الله، وامتثال أوامره، سنزيدهم من فضلنا فوق الغفران دخول الجنان.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي فغيَّر الظالمون منهم أمر الله، وقالوا كلاماً لا يليق، حيث قالوا بدل «حطة» حنطة في شعيرة، وعوضاً عن أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله، دخلوا يزحفون على أدبارهم، سخرية واستهزاءً بأمر الله. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ﴿وَادخُلوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغفِر لَكُم خَطِيئاتِكُم﴾ فبدَّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ـ أي مقاعدهم ـ وقالوا: حبةٌ في شَعْرة»[1].

والحاصل: أنهم خالفوا ما أُمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا بالسجود عند دخولهم البلدة المقدسة، شكراً لله تعالى، وأن يقولوا: حطة، فبدَّلوا السجود بالزحف، وقالوا: «حنطة» بدل حطة استهزاءً، وزادوا فيها حبة في شعيرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا على هؤلاء الظالمين عذاباً هائلاً ـ وهو الطاعون ـ بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر، وقد روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً منهم بالطاعون.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٠٤ من فتح الباري.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك، سؤال تقريع وتوبيخ[1]، والمراد إعلامهم بذلك، لأنهم كانوا يخفونه، والإعلام بما هو من علومهم، التي لا تعلم إلاّ بتعليم، أو وحي، لتكون لك معجزةً عليهم ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها، وما جرى على أهلها، وهي عند ابن عباس «أيلة» بين مدين والطور، وعن ابن شهاب هي طبرية ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله، بالصيد يوم السبت، وقد نُهوا عنه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ حيتان جمع حوت، أي حين تأتيهم الأسماك يوم السبت، لاعتيادها أحوالهم في عدم التعرض لها في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبتِ ﴿شُرَّعًا﴾ أي ظاهرة على وجه الماء، كما قال ابن عباس، جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي وفي غير يوم السبت ـ وهي سائر الأيام ـ لا تأتيهم، بل تغيب وتختفي حذراً من صيدهم، وكان ذلك بمحض تقدير العزيز العليم ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر، ليظهر عدوانهم ونؤاخذهم به ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم المستمر، وانتهاكهم لحرمات الله.

---

(١) كان اليهود المعارضون لرسول الله ﷺ يقولون: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان، ولا معاندة لما أُمروا به، فنزلت الآية موبخةً لهم، ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على وجه التوبيخ. المحرر الوجيز لابن عطية ٦/ ١٣.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي جماعة من أهل القرية، يعني صلحاؤهم الذين اجتهدوا في موعظتهم، حتى أيسوا من اتعاظهم، قيل: إن أهل القرية، افترقوا على ثلاث فرق: فرقة اعتدت، وفرقة وَعَظَتْ، وفرقةٌ قالت للواعظين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي مستأصلهم بالكلية ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي مهلكهم بالخسف أو المسخ، لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق، والعصيان، قالوه بمحضر من القوم، حثاً لهم على الاتعاظ ﴿قَالُوا﴾ أي المقول لهم ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى، حتى لا نُنسب إلى تفريطٍ في النهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ولطمعنا في أن يتقوا الله، فينزعوا عمَّا هم فيه من الإجرام.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم، تَرْكَ الناسي للشيء، وأعرضوا عنه بالكلية، بحيث لم تنجع فيهم تلك المواعظ أصلاً.

والنسيانُ هنا مجاز عن الترك، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، وإنما يؤاخذه بالإهمال والعصيان ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي نجينا من العذاب الناهين عن الفساد في الأرض، الواعظين المذكّرين. وقد اختلف السلف في الفرقة الثانية، التي لم تأمر ولم تنه بل سكتت.

فقال ابن عباس: ما أدري ما فُعل بالفرقة التي لم تنه ولم تأمر؟.

وقال ابن زيد: إنها هلكت مع الهالكين، لأن الله تعالى ذكر أنه نجَّى الذين نهوا عن السوء.

وروى القرطبي عن عكرمة أنه قال: «قلت لابن عباس لمَّا قال: ما أدري ما فُعل بهم؟ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوماً ما اللهُ مُهلِكُهُم﴾؟ فلم أزل به حتى عرَّفتُه أنهم قد نجوا، قال: فكساني حُلَّة»[1].

أمَّا شمول النص للناهين المحذرين فواضح، وأما شموله للساكتين، فلأنهم أنكروا أيضاً، ولكنهم لما رأوا عدم نفع النصيحة كفُّوا، وذلك إنكار بالقلب، وقد نصَّ الفقهاء أن الناهي إذا أيقن عدم نفع النصح، لا يأثم بتركه، لدخوله في باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الغارقين في الشراب، أو الموغلين بالربا والقمار، لتعظهم وتكفَّهم عما هم فيه من الضلال، سخروا وضحكوا عليك، وذهب كلامك معهم سدى[2]!! ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي أخذنا الطغاة الظالمين، بعذاب مؤلم موجع شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم الدائم المستمر، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا عن أمرنا وطاعتنا، وتكبَّروا، وأبوا تركَ ما نُهوا عنه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي مُسخوا إلى قردة وجعلناهم صاغرين أذلاء، مبعدين عن كل خير، وترتيب المسخ على العتو ليس لخصوصية الصيد، بل العمدة في ذلك، هو المخالفةُ للأمر، والاستعصاء عليه عزَّ وجلَّ، والأمر تكويني لا تكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يُكلَّفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/٣٠٧ قال القرطبي: وهذا مذهب الحسن البصري أيضاً، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة المعتدية لا غير، قوله تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾.

(٢) النصيحة واجبة للبرِّ والفاجر، إلاَّ إذا كان الضرر الناتج عن النصح أشدّ من سابقه، كما بيَّن الشيخ رحمه الله، كالنصيحة للملاحدة والشيوعيين، الذين لا يزيد معهم النصح إلاَّ سخرية واستهزاءً، فهؤلاء أمثال الحيوانات لا يُنصحون ولا يُحَدَّثون!!.

أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذَّبهم أولاً بعذاب شديد، فاستعصوا وعتوا عن أمر الله، فمسخهم الله إلى قردة تتعاوى. وروي أن الناهين لمّا يئسوا من اتعاظ المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدارٍ، فأصبحوا يوماً ولم يخرج أحد من المعتدين، فقالوا إن لهم شأناً، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإذن وهو بمعنى آذن أي أعلم ربك يا محمد ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ليسلطنَّ على اليهود، لا المعتدين الذين مُسخوا قردة، إذ لم يبقوا ، أي ليسلطنَّ على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي إلى انتهاء الدنيا، وهذا نصٌّ في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا، مستمراً إلى يوم القيامة ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ أي يذيقهم ويوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال، وضرب الجزية، والإهانة، ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

---

(١) سورة النحل، آية: ٤٠.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرَّقنا بني إسرائيل في الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم في قطرٍ من أقطارها، بحيث لا تخلو ناحية منها منهم، حتى لا تكون لهم شوكة قط ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وهم من آمن بالله ورسوله، وثبت على دينه في زمانه، قبل مجيء عيسى ابن مريم، ثم الذين آمنوا بالرسول ﷺ بعد بعثته ودخلوا في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منحطون عن مرتبة الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره، وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ بالنِّعَم، والخصب، والعافية ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الجدب، والشدة، النِّقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي إلى طاعة ربهم.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد الصالحين ﴿خَلْفٌ﴾ بسكون اللام أي بدلُ سوء، وهو الشائع في الشر، والخَلَف بفتح اللام في الخير، يقال: جعلك الله خير خَلَف لخَير سَلَف، والمراد أنه جاء من بعد أولئك الصالحين، جماعة أشرارٌ فجار ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي انتقل الكتاب إليهم عن آبائهم «التوراة» يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي، ولم يعملوا بها، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ العَرَض جميع متاع الدنيا إلا الدراهم والدنانير، فإنها عَيْنٌ، وفي الأثر: «الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأخذ منها البَرُّ والفاجر».

والأدنى صفة لمحذوف أي الشيء الأدنى، والمراد به الدنيا، وهي من الدنو للقرب بالنسبة إلى الآخرة، والمراد بهذا العرض ما كانوا يأخذون من الرشاوى في الحكومات، وعلى تحريف الكلام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ﴾ أي لن يؤاخذنا الله بذلك، فيتمنون على الله الأماني الباطلة، كما جاء في الحديث الشريف: «الكيّس من دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني»[1] ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ في

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦١ وقال: هذا حديث حسن.

موضع الحال، أي يرجون المغفرة وهم مصرون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين عنه، وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب والآثام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الميثاق المذكور في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد أن يقولوا الحق، ولا يكذبوا على الله؟ والمراد به الردُّ عليهم، والتوبيخ لهم على ادعائهم القول بالمغفرة بلا توبة، والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه وتبصَّروا بما فيه، فهم ذاكرون لذلك، لأنهم دارسون له، ولكنْ ضيَّعوا العمل به ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عقابه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فتعلموا ذلك، ولا تستبدلوا الأدنى، المؤدي إلى العذاب، بالنعيم المقيم؟ وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق، وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم، يقال أمسك بالشيء، وتمسَّك به بمعنى اعتصم، والمراد بهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ، والكتاب القرآن الجليل ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنها عماد الدين، وأعظم العبادات بعد الإيمان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب المحسنين منهم، وضع الظاهر موضع المضمر، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذبُ والرفعُ، أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي سقيفة أو سحابة ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي تيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجذب، وفي الأثر: أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا

التوراة، فأمر الله جبريل أن يرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم وإلا ليقعنَّ عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فَرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجُدُ إلاَّ على حاجبه الأيسر ﴿خُذُواْ﴾ أي وقلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجدّ وعزم على تحمل مشاقه ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائح الأعمال، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ احتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام، وتوبيخهم بنقضه، أي واذكر للخلق حين أخذ ربك ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المراد بهم أولاد آدم جميعاً ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يُستودعوا بعدُ في أرحام الأمهات، والتقديرُ: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المراد أولادهم على العموم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أشهد كل واحد، من أولئك الذرية، أن الله ربُّه بما ركَّب في عقولهم، من الإقرار بربوبية الله جلَّ وعلا، وصاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ أي خالقكم ومالك أمركم؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ على أنفسنا بأنك ربنا، لا ربَّ لنا غيرك، والمراد أقررنا بذلك، والكلام عند بعض المفسرين، أنه تمثيل لخلقه تعالى الخلق على مبدأ الفطرة، مستعدّين للاستدلال بالأدلة الكونية إلى التوحيد، كما نطق به قوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث. وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت

ربنا شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك من غيرِ أن يكون هناك أخذ وإشهاد، وسؤال وجواب كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] إلى هذا ذهب بعض أهل التفسير، منهم الزجاج، والزمخشري، وأبو حيان وأبو السعود، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله أخرج ذرية آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق[2]، وجعل الله لهم عقلاً، وفهماً تعقل به، كما قال في النملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لئلا تقولوا يوم البعث والحساب، عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ عن وحدانيته تعالى وأحكامها ﴿غَافِلِينَ﴾ لم نتنبَّهْ عليه، فلا سبيل إلى الاعتذار بذلك، إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر، من خَلقِهِم على الفطرة السليمة.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أو تقولوا في ذلك اليوم ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي إن آباءنا هم اخترعوا الإشراك، وهم سنُّوه من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ لا نهتدي إلى سبيل التوحيد فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ أي أتؤاخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا المضلين

---

(١) سورة فُصّلت، آية: ١١.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٧٥ بعد أن ساق الأحاديث، والآثار، والأخبار الواردة عن السلف قال: فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديثين عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثمَّ قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل من آدم وقال ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره وقال ﴿ذرياتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كما قال سبحانه: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، ثم أفاض في الموضوع رحمه الله تعالى.

والاعتذار بهذا باطل أيضاً، لأن التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا مساغ له أيضاً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ للمنافع الجليلة ليتدبرها العباد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الإصرار على الباطل، وعن الشرك والتقليد الخاسر.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود أو على قومك ﴿ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر. وهو كما روى ابن عباس «بلعم بن باعوراء» وكان من بني إسرائيل، وكان قد أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، والتعبير عنه بالانسلاخ فيه إشارة إلى أن الإيمان كان طِلاءً، ولم يتمكن من قلبه كما تنسلخ الحية من جلدها، وهو مؤذن بكمال مباينته للآيات الهادية ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي تبعه حتى لحقه وأدركه، فصار قريناً له، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية، ومبالغة في اللحوق، إذ جعل كأنه أمام الشيطان ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فصار من زمرة الضالين، الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين، بما خالف ربه، وأطاع هواه وشيطانه، روي عن مالك بن دينار أنَّ «بلعم» كان من علماء بني إسرائيل، وكان موسى يقدّمه في الشدائد، وينعم عليه،

فبعثه إلى ملك مَدْين، يدعوهم إلى الله تعالى، فترك دين موسى، واتَّبع دين الملك فزاغ وضلَّ.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ في الكلام حذف المفعول لمشيئة أي لو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل العلماء الأبرار، ﴿ لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أي إلى المنازل العالية، بسبب تلك الآيات، بمحض مشيئتنا ولكنها منافية للحكمة التشريعية، المؤسسة على تعليق الجزاء بالأفعال الاختيارية للعباد ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى الدنيا ومال إليها، وأصل الإخلاد: اللزومُ للمكان، من الخلود ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وإعراضه عن مقتضى الآيات، فانحطَّ أسفل السافلين، وهذه الآية أشد الآيات على العلماء، الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس. عن كعب بن مالك الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء، على المال والشرف لدينه»[1].

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل فقال ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ أي فقصته التي هي مثل في الخِسَّة، كمثل الكلب لما أنه أخس الحيوانات ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي إن تزجره وتطرده ﴿ يَلْهَث ﴾ يدلع لسانه ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ ﴾ غير مطرودٍ ﴿ يَلْهَثْ ﴾ اللَّهثُ: ادّلاعُ اللسان بالنّفس الشديد، وهو في الكلاب طبعٌ، لضعف قلبها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلاَّ عند التعب والإعياء[2] ﴿ ذَّٰلِكَ ﴾ أي ذلك المثل ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ ومنهم اليهود، حيث أوتوا ما أوتوا في التوراة، من نعوت النبي ﷺ، فصدّقوه وبشّروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا من التوراة

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ١٤٨٢ وصحَّحه، ورواه النسائي وابن حبان.

(٢) أي مثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه سعى فلهث، وإن تركته على سجيته دون إزعاج لهث، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائق الجمال، في التصوير والإبداع.

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي إذا تحقق أن المثل المذكور مَثَلُ هؤلاء المكذبين، فاقصص ذلك عليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيقفون على جليّة الأمر، وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿ سَآءَ مَثَلًا ﴾ استئناف مسوق لبيان قبح حال المكذبين، بعد بيان كونه كحال الكلب ﴿ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي هذا المثل السيىء هو مَثَلٌ لكل من كذَّب بآيات الله، وجحد نعمة فضل العلم والهداية ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلموا إلاَّ أنفسهم، فإن وبالها لا يتخطاها.

ومن تفكر الأمثال المضروبة في التنزيل، في حق المشركين والأصنام من بيت العنكبوت، والذباب، تحقق له أن مثل علماء السوء، أسوأ وأقبح من ذلك، لما هم فيه من التهالك على الدنيا، مالِهَا وجاهِهَا، والركونِ إلى لذاتها وشهواتها، ولذلك مثَّل لهم بالكلب كما مثَّل لهم بالحمار، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ﴾ تحقيق وتأكيد لما تضمنته القصة السابقة، بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهته سبحانه وتعالى، أي من يخلق الله فيه الاهتداء، فهو المهتدي لا غير كائناً من كان، ولو كان الهدى من الله البيانُ ـ كما قالت المعتزلة ـ لاستوى المؤمن والكافر، إذ البيان ثابت في حق الفريقين، فدلَّ أنه من الله عز وجل التوفيقُ، والعصمةُ، والمعونةُ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن، وفي الإخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي، تعظيمٌ لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه شيء جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ بأن خلق فيه الضلالة، لصرف اختياره نحوها ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ أي

الكاملون في الخسران لا غير، وإفراد المهتدي، وجمع الخاسرين للإيذان باتحاد منهاج الهدى، وتفرُّق طرق الضلالة وتشعُّبها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الذرأ: الخلقُ، وبذلك فسره ابن عباس، أي والله لقد خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم المصرون على الكفر، واللام للعاقبة، كقول الشاعر: «لِدُوا للموتِ وابْنُوا لِلخَرَابِ» وتقديم الجن لأنهم أقدم خلقا، ولا يشكل أنهم خُلقوا من النار، فلا يشقُّ عليهم دخولها؟ لأنا نقول: إن الغالب عليهم الجزء الناري، لا يأبى تضررهم بها، فإن الإنس خلقوا من الطين، ويتضررون به، على أن النار لم تبق فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها، كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب قاسية عليلة، لا يفهمون بها الحقَّ ولا يدركون فوائده، وهذا وصف للقلوب بتمام الإغراق في القساوة، فإنها حيث لم يأت منها الفقه، فكأنها غير قابلة له رأساً، وحذفُ المفعول للتعميم، أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ المراد بالإبصار والسمع المنفيين، ما يختص بالعقلاء من الإدراك، النافع، لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشَّبَح والصوت، كما هو وظيفة الأنعام، أي لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات، التي ينتفعون بها لمعرفة عظمة الخالق ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ شيئاً من المسموعات النافعة، فيتناول الآيات التنزيلية، وهذا كله للشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالأوصاف المذكورة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالدواب والبهائم في عدم الفقه والبصر والإدراك، لأن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي بل هم أسوأ حالاً من الأنعام، فإنها تدرك

المنافع والمضار، فتجتهد في جلبها وسلبها، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميّزون بين المنافع والمضار، بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم، ويقدمون على العذاب الأليم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم، وما أعد الله تعالى من الثواب والعقاب.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والحُسْنى: تأنيث الأحسن، أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها ـ قال البخاري: المراد به حفظها ـ دخل الجنة»[1] ولا يظنن أحد أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار، بل له سبحانه أسماء غيرها استأثر بعلمها[2]، ولما كان لا سبيل إلى معرفة ذاته عز وجل، إلا بمعرفة أفعاله، وهذا بحر لا ساحل له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فسمُّوه بتلك الأسماء الجليلة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ أي اتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم: يا أبا المكارم، ويا أبيض الوجه ونحو ذلك، فإن أسماء الله تعالى توقيفية، يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ١١/ ٢١٤ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٧٧ وزاد مسلم «وإنَّ الله وترٌ يحبُّ الوتر».

(٢) يدل على ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو ستأثرتَ به في علم الغيب عندك..» الحديث.

جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه، والإلحاد في أسمائه تعالى كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان، كما ينبغي أن يراعى حسن الأدب، فلا يجوز أن نقول يا ضار، ويا خالق القردة على الانفراد، وإن كان الله خالقاً لكل شيء، والمراد بالترك الإعراضُ وعدمُ المبالاة بما فعلوا، ترقباً لنزول العقوبة فيهم عن قريب، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه وقع جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لم لا نبالي بإلحادهم؟ فقيل: سينزل بهم عقوبة عن قريب.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض البشر التي خلقنا، طائفة جليلة يهدون الناس، ويدلونهم على الاستقامة، وبالحق يحكمون في الحكومات الجارية بينهم، ولا يجورون، والمراد بهم أمة محمد ﷺ، روى الشيخان عن معاوية قال: قال ﷺ: «لا تزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله تعالى، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»[1]، واستدل بالآية على صحة الإجماع، لأن المراد منه، أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة، إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ لم يكن لذكره فائدة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

---

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/٢٩٣ من فتح الباري شرح صحيح البخاري.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ولم تنفعهم هداية الهادين، كأهل مكة وغيرهم، وإضافة الآيات إلى الله لتشريفها واستعظام الإقدام على التكذيب بها ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سنقرّبهم البتة إلى ما يهلكهم قليلاً، قليلاً، والاستدراجُ من الدرجة، بمعنى النقل درجةً بعد درجة، من سفلٍ إلى علو أو بالعكس، فيكون استنزالاً، ثم اتسع في كل نقل تدريجي، سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط، والمعنى المراد هو النقل إلى دركات المهالك، ليبلغ أقصى مراتب العقوبة، ولذا قيل: إذا رأيتَ الله تعالى ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، والجِبِلَّةُ الإنسانية في أصل الفطرة، سليمةٌ متهيأة لقبول الحق والدين، فإذا أخلد إلى الأرض، واتبع الشهوات، ينزل درجة درجة إلى أسفل السافلين، فيزداد بطراً وطغياناً، إلى أن تحقَّ عليه كلمةُ العذاب ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنه كذلك، بل يظنون أنه لطفٌ من الله تعالى بهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ الإملاءُ: عبارة عن الإمهال أي أمهلهم ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان، وهو تقرير للوعيد، وتأكيد له، أي قوي لا يُدافع بقوة ولا بحيلة.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ في شأنه ﷺ ليعرفوا حقيقة حاله، الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه، من الآيات التي كذبوا بها، والهمزة للإنكار والتعجب، والتوبيخ ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ يعني الرسول ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي من جنون، والجنَّةُ بكسر الجيم بمعنى الجنون، والتنكيرُ للتقليل والتحقير، أي كذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون كائنٍ بصاحبهم، والتعبير عنه «بصاحبهم» للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ﷺ، مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون، ففيه تأكيد للنكير، وعن الحسن وقتادة أنه ﷺ صعد على الصفا، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، يحذّرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنونٌ، فنزلت ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

﴿مُّبِينٌ﴾ أي ما هو إلا رسول منذر، واضح الأمر والإنذار، معروف حاله فقد كان ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل، ويقيم الدلائل القاطعة، بألفاظ فصيحة، وكان ﷺ حسن الخلق، طيّب العِشرة، نقيَّ السيرة، مواظباً على أعمال حسنة، وصار قدوة للعقلاء، وإماماً للصالحين، والمعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، بل إنما هو نذير مبين أرسله رب العالمين، ثم لما كان أمر النبوة مفرعاً على التوحيد، ذكر سبحانه ما يدل عليه فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما في السموات والأرض من العجائب والمخلوقات، والملكوتُ: الملك الواسع، وهو من أبنية المبالغة كالرهبوت، والجبروت، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، حيث لم يتفكروا فيما يدلُّ عليه من كمال قدرة الصانع، ووحدة المبدع، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم ﷺ، والتعبير بالنظر هنا، دون التفكر، للإشارة إلى أن الدليل هنا، أوضحُ منه فيما تقدم، والملكوتُ: الملكُ العظيم الواسع، أي أولم ينظر أهل مكة، نظر اعتبار واستدلال، في ملكوت السماوات والأرض؟ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾؟ أي وفي جميع مخلوقات الله، مما يقع عليه النظر من الأشياء التي لا يمكن حصرها، الدالة على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها؟ فإن كل فردٍ من أفراد الأكوان، دليل واضح على الصانع الديَّان سبحانه وتعالى وقوله: ﴿مِن شَيءٍ﴾ بيانٌ لما خلق الله، وفي ذلك تنبيهٌ على أن الدلالة على التوحيد، غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كل ذرةٍ من ذرات العالم، دليل عل توحيده سبحانه كما قال العارف:

وَفـي كـلِّ شـيْءٍ لـهُ آيـةٌ   تَـدُلُّ عَلَـى أنَّـهُ وَاحـدُ

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتمون عن قريب، فمناط الإنكار تأخيرُهم النظر، أي فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينية، الشاهدة على صدق الرسالة المحمدية، قبل مفاجأة

الأجل، وحلول العقاب؟ فعلى العاقل المسارعة والمبادرة إلى التفكر والاعتبار ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن، وهو النهاية في الظهور والبيان، فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون؟ وكأنه قيل: لعلَّ أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الموت؟.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ أي من يحكم الله بضلاله، فلا أحد يهديه، ولا يستطيع أن يضع الإيمان في قلبه ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في الكفر، محيّرين لا يهتدون سبيلاً، والعمهُ في البصيرة كالعمى في البصر. ثم لما تقدم ذكر اقتراب أجلهم، عقَّبه سبحانه بذكر سؤالهم عن الساعة فقال:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعةُ: القيامةُ، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، لأنها عند الله كساعة من ساعات الدنيا، والسائل أناسٌ من اليهود قالوا: أخبرنا متى الساعة؟ وعن قتادة أن قريشاً قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة فنحن أقرباؤك[1] قالوا ذلك استهزاءً فنزلت الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، ومرساها مصدر ميمي، من أرساه إذا أثبته وأقرَّه أي متى إثباتها وتقريرها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر به جلَّ وعلا، لم يطلع عليه

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٨٢ نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكان المشركون يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالىٰ: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟.

مَلَكاً مقرّباً، ولا نبياً مرسلاً، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية كما أخفى وقت الموت عن الإنسان ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها، إلاَّ هو سبحانه بالذات، لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه، والتجليةُ: إظهار الشيء بعد خفائه ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كبرت وعظمت على أهلها، حيث لم يعلموا وقت وقوعها، وعن قتادة أن المعنى: عظمت على أهل السماوات والأرض، حيث يخافون شدائدها، وقيل المعنى: ثقلت عند الوقوع على نفس السماوات، حتى انشقت وكُوّرت شمسُها، وانتثرت نجومها، وعلى نفس الأرض حتى سُيّرت جبالُها وسُجِّرت بحارُها، والأول هو الأنسب بما قبله وبعده لقوله سبحانه: ﴿ويَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثقيلاً﴾ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة على حين غفلة، وفي الحديث الشريف «لتقومنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبَهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد رَفَع أكلته إلى فيه، فلا يَطْعمها. . .»[1] الحديث ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك عنها، وعن وقت قيامها كأنك حفي عنها، أي مبالغ في العلم بها، والحفيُّ: المستقصي في السؤال، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه استحكم علمه به ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كرره تأكيداً للحكم، وتقريراً له، وتمهيداً للتعريض بجهلهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن علمها عند الله، لم يؤته أحداً من خلقه، فبعضهم ينكرها رأساً، وبعضهم يدَّعي أن العلم بذلك من موجبات الرسالة، فيتَّخذ السؤال عنها ذريعة إلى القدح في رسالته ﷺ، وظاهر الآية أنه ﷺ لم يعلم وقت قيامها، نعم عَلِم قربها على الإجمال، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعاً «بُعثتُ أنا والساعة كهاتَيْنِ، وأشار بالسبَّابة، والوسطى»[2] وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن ١٣/ ٧٨ ومسلم رقم ١٥٧ وهو حديث طويل جامع.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٩٩ ومسلم في الفتن رقم ٢٩٥١ ورواه الترمذي رقم ٢٢١٥.

الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً «إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس»[1] والذي ينبغي معرفته القول بحدوث العالم حدوثاً زمانياً، ولا يعلم أوله إلا الله تعالى، وكذلك عمر الدنيا، كل ذلك لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجل، وجميعُ ما ورد في هذا الباب، أمور ظنية لا سند يعول عليها.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك لنفسي جلب نفع، ولا دفع ضر، وهو إظهارٌ للعبودية، والتبري عن ادعاء العلم بالغيوب، وبيان عجز الكل عنه، وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم، من كونه ﷺ ممن يعلمها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، فإنني حينئذ أملكه بمشيئته تعالى ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لو كنت أعرف أمور الغيب، وما سيحدث في الدنيا ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي لحصلت لنفسي الخير الذي أرجوه ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي وما أصابني شيء من الأذى والضرر، ولكن لا أعلمه فلذلك يصيبني المكروه والأذى، واستشكلت هذه الآية مع ما صحَّ أنه ﷺ أخبر بالمغيبات الجمة، وكان الأمر كما أخبر به وعُدَّ ذلك من أعظم معجزاته ﷺ؟ أجيب بأن المعنى لا أعلم الغيب إلاَّ أن يطلعني الله تعالى عليه، ويقدّره لي، فلما أطلعه الله تعالى أخبر به، ليكون ذلك معجزة له، ودلالة على صحة نبوته ﷺ ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل، للإنذار والبشارة، وشأني تذكير الخلق بالنافع والضار، من

---

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ٤/ ٣٦٧ في الإجارة والترمذي رقم ٢٨٧٥ في الأمثال.

الأمور الدينية والدنيوية، لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الشرائع، أما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بما جئتُ به، وتخصيصهم بالذكر لأنهم ينتفعون بالإنذار، كما ينتفعون بالبشارة.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي خلقكم جميعاً من نفسٍ واحدة هي آدم أبو البشر ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوجَهَا﴾ أي خلق حواء من جنسها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليستأنس بها، لأن الجنس إلى الجنس أميل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها، كنَّى به أحسن كناية، وفيه إيماء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة، كما أن الوحدة علة الوحشة ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي محمولاً خفيفاً بادىء الأمر، فإنه عند كونه نطفة، أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك، ويجوز أن يراد بالخفة عدم التأذي، أي حملت حملاً خفَّ عليها ليس فيه كرب وشدة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت حيث قامت وقعدت، وهو خفيف عليها، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل، بكبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي آدم وحواء، لمَّا خافا عاقبة الأمر عليه، تضرَّعا إليه عزَّ وجل ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي مالك أمرهما، الحقيق بأن يخص به بالدعاء، أي دعواه تعالى أن يؤتيهما ولداً صالحاً، ووعدا بمقابلته الشكر، وقالا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي ولداً سوياً سليم الجسم والخلقة. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر لك، المبالغين فيه.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي فلما وهبهما، الولد الصالح السوي ﴿جَعَلَا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والنسل، وثنَّى الضمير باعتبار أن ذلك النسل صنفان: ذكر، وأنثى، وقد جاء أن حواء كانت تلد في كل بطنٍ كذلك ﴿لَهُۥ﴾ أي لله سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَآءَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ من الأولاد، أي جعل أولادهما له تعالى شركاء فيما آتيناهم، حيث سموهم بعبد العُزَّى، وعبد مناف، ونحو ذلك، وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ، لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر، في مقابلة نعمة الولد الصالح ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجيب، أي تنزَّه وتقدَّس الله عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء والأنداد، وضمير الجمع لأولئك النسل، الذين جعلوا لله شركاء، للإيذان بعظم شركهم، و«ما» مصدرية، أي تعالى الله عن إشراكهم. واستشكل هذه الآية، وللعلماء فيها كلام طويل، والأوفق منها ما قيل: إن صدر الآية إلى قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ لآدم وحواء، ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر، بالتخلص إلى قصة العرب وإشراكهم، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولو كانت القصة واحدة، لقيل: فتعالى الله عما يشركان، وكذلك قوله بعده[1].

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في آدم وحواء، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلا له شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما، ورووا حديثاً عن سَمُرة مرفوعاً «أن حواء لمَّا ولدت طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان...» الخ، وهذا القول لا يصح، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم وحواء لأمرٍ يخدش العقيدة، بل هو شرك بالله، وإنما الصحيح ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ أن ذلك كان في ذرّيته، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فالآية وردت حكاية عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله الذرية والبنين، فأشركوا مع الله، وسموا أولادهم بأسماء الشياطين، وهذا هو الحقُّ بدليل قوله تعالى بعده ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾!!.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا ﴾؟ مسوقٌ لتوبيخ كافة المشركين، ببيان ما أشركوه به سبحانه وتعالى، أي أيشركون به تعالى ما لا يقدر أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً، ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده، وعنى بـ «ما» الأصنام ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وإيراد الضميرين بجمع العقلاء، مع رجوعهما إلى الأصنام، إنما هو بحسب اعتقادهم فيها، وكذا حال الضمائر الآتية، ووصفها بالمخلوقية لإبانة حالها، لما اعتقدوه في حقها، وإظهار غاية جهلهم.

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين الذين عبدوهم ﴿ نَصْرًا ﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصرة عابديها ﴿ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ إذا اعتراهم حادثة من الحوادث، أي لا يدفعونها عن أنفسهم، وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما.

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر وأيسر، وهو مجرد الإرشاد إلى طريق الهداية، والخطاب للمشركين، بدلالة ما بعده، أي وإن تدعوهم ـ أيها المشركون ـ إلى أن

يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب، وتنجون به من المكاره، لا يتبعوكم إلى مرادكم، ولا يقدرون على ذلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ أي مستوٍ عليكم في عدم الفائدة، دعاؤكم للأصنام وسكوتكم، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم بحكم أنها جمادات، لا تنطق ولا تعقل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي مماثلة لكم في العجز والضعف، وعجزها أظهر من عجزكم، وتشبيهها بهم في ذلك إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم، وادعائهم لقدرتها عليهم، إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها، والاستعانة بها ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ أمر للتعجيز والتقريع، أي فادعوهم في جلب نفع، أو كشف ضر، فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟ تبكيتٌ إثر تبكيت، مؤكدٌ لما يفيده الأمر التعجيزي، فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية، إنما تتصور إذا كان لها حياةٌ، وقُوى محركة، وما ليس له شيءٌ من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل، وقد وُجِّه الإنكارُ إلى كل واحدة من هذه الآلات، تكريراً للتبكيت ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يناصبهم المحاجة، ويكرر عليهم التبكيت، أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بها في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعاً أنتم وشركاؤكم، وبالغوا في ترتيب ما تقدرون عليه من مبادي المكر والكيد ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد، فإني لا أبالي بكم أصلاً.

﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، تعليل لعدم المبالاة، ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب، للإشعار بدليل الولاية، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله تعالى، الذي نزَّل الكتاب الناطق بأنه وليي

وناصري ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى، أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه، وهذا تبشيرٌ للصالحين، وهذه الآية مما جربت المداومة عليها للحفظ من الأعداء، وكانت ورد الوالد في الأسحار، وقد أمره بعض الصالحين في المنام بها.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي تعبدونهم، أو تدعونهم للاستعانة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إذا أُصيبوا بحادثة، فهم أعجز عن نفع غيرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ أي إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتِّباع ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار وبهذا تم التعليل لعدم المبالاة فلا تكرار أصلاً، والمعنى: وترى الأصنام رأي العين، يُشبهون الناظر إليك، والحال أنهم لا يبصرونك، قيل: إنهم صُنع لهم أعينٌ، مركبة بالجواهر المتلألئة، وصورت بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، وذهب بعضهم إلى أن الخطاب في ﴿تَرَاهُمْ﴾ للمشركين أي وترى المشركين ناظرين إليك، والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه، حكي أن السلطان محمود دخل على الشيخ الخرقاني لزيارته، وقال: يا شيخُ ما تقول في حق البسطامي؟ فقال الشيخ: هو رجل من رآه اهتدى، فقال السلطان: وكيفَ ذلك؟ وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يهتد؟ فقال الشيخ: إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ، وإنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رأى رسول الله كما كان ﷺ، لخرج من الشقاوة واهتدى.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي ما عفا وسهل، وتيسَّر من أخلاق الناس، وإلى هذا

ذهب ابن عمر، وعن ابن عباس العَفْوُ: ما فَضَل، روي أنه لما نزلت هذه الآية، كان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه، ويتصدق بالفضل، فنسخها الله تعالى بالزكاة[1] والمراد بالعفو الحقوقُ التي تجوز المسامحة فيها، ويدخل فيه ترك التشدد في الحقوق المالية، والتخلق بالأخلاق الطيبة، وترك الغلظة، والدعوة إلى الحق بالرفق ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والمستحسن من الأفعال، والمعروفُ: ضدُّ المنكر، والعُرفُ ضدُّ النُّكر، وهو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، آمرة للرسول ﷺ باستجماعها، أخرج ابن جرير عن الشعبي قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿خُذِ العَفوَ﴾ الآية قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله تعالى أمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطيَ من حَرَمك، وتصلَ من قطعك»[2].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي ينخسنَّك منه نخسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمرت به، كاعتراء غضب، والنزغُ: النَّخْسُ والغرزُ، شُبِّهت وسوستُه للناس، إغراءً لهم على المعاصي، بغرز السائق ما يسوقه، نزغ الشيطان بينهم أفسد وأغرى، أي وإما يحملنك من جهة الشيطان وسوسة ما ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره، في دفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً فيعصمك من شره، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجِنِّ، وقرينُهُ من الملائكة!! قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: وإيَّايَ، ولكنَّ الله أعانني عليه فَأَسْلَمَ ـ أي انقاد وامتنع عن وسوستي ـ فلا

---

(١) الطبري ١٣/٣٢٨ قال: وأولى الأقوال بالصواب أن معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٣/٣٢٩.

يأمرني إلاَّ بخير»[1] وهذا الخطاب وإن كان له ﷺ إلاَّ أن المراد: غيره، وهو تأديبٌ عام لجميع المكلفين، ولمَّا ثبت أن لهذه الاستعاذة، أثر في دفع نزغ الشيطان، لزمت لنا المواظبة عليها في أكثر الأحوال، وفي الآية زيادة تنفير، وفرط تحذير عن العمل بموجب الغضب، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، تهويل لذلك، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة، التي لا يُتخلص من مضرتها، إلاَّ بالالتجاء إلى حرم عصمته عزَّ وجلَّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ بيان أن ما أمر به ﷺ من الاستعاذة بالله تعالى، سنةٌ مسلوكة للمتقين، والإخلال بها دَيْدَنُ الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي لَمَّة منه كما روي عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، المراد وسوسةٌ ما، من طاف يطوف كأنها طافت بهم، ودارت حولهم، فلم تقدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم، وبيان لعادة المتقين، أنهم إذا أصابهم أدنى نزغٍ من الشيطان ﴿ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ أي ما أمر الله تعالى به، ونهى عنه، وعرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، فيتحرزون عنها، ويفرون إلى الله عزَّ وجل، فيزدادون بصيرةً من الله تعالى.

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ ﴾ أي إخوان الشياطين، وهم المنهمكون في الغيّ، المعرضون عن وقاية أنفسهم ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾ الضمير المرفوع للشياطين أي يكون للشياطين مددٌ لهم فيه، بالتزيين والإغراء، وعن ابن عباس

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين رقم ٢٨١٤، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.

الضمير راجع لشياطين الجن والإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي ثم لا يكفُّ هؤلاء عن الغي، ولا يقصرون ولا يرعون، والمتقون إذا أصابهم طيف، تذكَّروا وعرفوا ذلك، ونزعوا عنه، وتابوا واستغفروا، وإخوان الشياطين مستمرون في الضلالة، لا يتذكرون ولا يتوبون.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ من الآيات من القرآن، أو بآية مقترحة كما روي عن ابن عباس ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي هلاَّ جمعتها تقوّلاً من نفسك!! أو هلاَّ طلبتها من الله!! وهو تهكم منهم لعنهم الله تعالى، قال الفراء: يُقال: اجتبيتُ الكلامَ، واختلقتُه، وارتجلتُه، إذا افتعلته من قِبَل نفسك، وكذا اخترعته عند أبي عبيدة، أي قالوا: لولا اخترعتها؟ يرون بذلك أن سائر الآيات كذلك ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لست بمختلق لها، أي أتّبع ما يوحى إليّ من ربي من غير أن يكون لي دخل في ذلك أصلاً ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم، أي هذا القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب، بها تبصر الحقَّ، وتدرك الصوابَ، فإنه حجج بينة، وبراهين نيرة، تغني عن غيرها، والكلام خارجٌ مخرج التشبيه البليغ، ولمَّا كان القرآن الكريم سبباً لبصائر العقول، في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أُطلق عليه اسم البصائر، من باب تسمية السبب باسم المسبَّب.

بيَّن الله تعالى بهذا أن ظهور القرآن، معجزة بالغة كافية، في دلائل التوحيد والنبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعنُّت ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ تنوينهما للتفخيم، وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيذان بأنَّ كون القرآن الكريم بصائر، متحققٌ بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجميع، أما هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين، إذْ هم المقتبسون من أنواره، والجملة من تمام القول المأمور به.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بالمنافع الجليلة، التي ينطوي عليها القرآن، أي وإذا قُرىء القرآن، الذي ذُكرت شؤونه العظيمة ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ﴾ استماع تحقيق وقبول، يعني أصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه ﴿ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ أي اسكتوا في خلال القراءة تعظيماً له، وتكميلاً للاستماع، وراعوها إلى انقضائها، نصت له أي: سكت مستمعاً، والإنصاتُ: السكوتُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة، التي هي أقصى ثمراته، والآية دليل لأبي حنيفة رحمه الله في أن المأموم لا يقرأ في سرية، ولا جهرية خلف الإمام، لأنها تقتضي وجوب الاستماع، عند قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر[1] ويؤيده أخبار جمة، أخرج ابنُ أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعل الإمامُ ليؤتمَّ به، فإذا كبَّرَ فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتُوا»[2] وأخرج أيضاً عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان له إمامٌ، فقراءته له قراءة» وقال الشعبي: أدركتُ سبعين بدرياً، كلُّهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ عام في الأذكار كافة، من القراءة والدعاء،

---

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة عملاً بالآية الكريمة، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب قراءة الفاتحة وراء الإمام لحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ومذهب مالك أنه يقرأ في السرية ويسكت في الجهرية، وانظر الأدلة مفصلة في كتابنا روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ١/ ٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ، ويدخل فيه أمته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ فإن الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقرب من القبول، وقيل: المرادُ بالذكر في نفسه، أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار، لأن الذكر المجرَّد باللسان، عارياً عن الذكر بالقلب، قليل الجدوى ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكره متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً ما فوق السر، دون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي اذكره وقت الغدوِّ أي الصباح ﴿وَالْآصَالِ﴾ جمع الأصيل: وهو الوقتُ بين العصر إلى المغرب ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة لسموّ قدرهم وهم ملائكة الملأ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ تعالى وطاعته، بل يؤدونه حسبما أُمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ أي ويخصُّونه بغاية العبودية والتذلل، ولا يشركون به غيره جلَّ شأنه، وهو تعريضٌ بمن عداهم من المكلفين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه»[1] وروى ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر قال: كان ﷺ يقول في سجوده: «اللهم سجد لكَ سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»[2].

«تَم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

* * *

---

(١) أخرجه البخاري ٢/٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ وتتمته: «فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لموضع جبهته في غير وقت صلاة».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.